مَدامع الفضيلة

حاتم إبراهيم سلامة

٢٠٢٦

مَدَامِع الفضيلة

حاتم إبراهيم سلامة

٢٠٢٦

إلى الذين ما زالوا يؤمنون بأنَّ للفضيلة دموعًا، وللضمير صوتًا لا يخفُت، وللإنسانية نبضًا لا يموت...

بهاء المري

إهـــــداء

أهدي هذا الكتاب إلى أستاذنا الجليل والمحقق الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور (النبوي عبد الواحد شعلان) الذي تعلمنا منه كثيرًا من دورب الفضيلة، ورأيناه فارسًا في مواطن الشهامة والمروءة، وعلمناه رجلا شجاعًا ينصر الحق ولا يخاف فيه لومة لائم، بل عرفناه ذلك الكبير الذي على قدر ما يمتلئ جوفه بالعلم، يمتلئ تواضعًا وذوقًا واحتراما.. فأعاد لنا صورة العالم الأزهري القدوة الذي يباهي به أزهره وجامعته.

مقدمة

ليس هناك شيء تتحسر عليه النفس ويمكن بها أن تذرف عليه الدمع كما تكون للفضيلة والأخلاق.. وكلما مر الزمن بالإنسان سمع ما يَندى له الجبين من أفعال البشر الذين تجردوا من كل معالم الضمير والخلق والانسانية. في زمن تلاطمت فيه أمواج الماديات، واشتدت فيه زوابع السرعة، وأصبح القلب البشري في سباقٍ محمومٍ لإدراك الغاية، فانشغل عن الوسيلة.

هنا، في دهاليز هذه الحياة الصاخبة، تقبع كنوزٌ مهملة، وحقائقٌ مغمورة؛ إنها الفضائل المنسية، تلك التي كانت يومًا ما عُمُدًا لحضارات، ومحاور ارتكازٍ لشخصيات عظيمة، فغدت اليوم مجرد "كلمات" نرددها على استحياء، أو "مثاليات" نُؤجّل العمل بها إلى أجل غير مسمى.

إنّ هذا الكتاب، "مدامع الفضيلة"، ليس مجرد سردٍ تنظيريٍّ لتاريخ الأخلاق، بل هو صرخةٌ تُنادي في قاعات الضمير الغافلة، ودمعةٌ تُسكبُ حسرةً على ما ضاع من جوهر الروح ولبّ الإنسان.

هو محاولة لاسترداد البوصلة الأخلاقية التي زلّت من أيدينا، والغوص في عُمقِ القيم كـ الرحمة، والصدق، والشجاعة الأدبية، والإيثار، والعفة؛ لنكتشف أن الفضيلة ليست حِملًا ثقيلًا، بل هي جناحٌ يُحلِّقُ بنا فوق مستنقعات الرذيلة واليأس.

لقد ارتأينا في هذا المسير ألا نكتفي ببريق التنظير، بل أن نُصاحب القارئ عبر دروبٍ مضاءة بنور الواقع والتاريخ والأدب. فالأخلاق ليست فكرة عائمة، بل هي لحمٌ ودمٌ في سير الأبطال والعظماء، وهي عبرةٌ وقصةٌ في ثنايا التاريخ المروي، وهي فنٌ خالدٌ في روائع الأدباء الذين صاغوا التجارب البشرية الخالدة.. سنستشهد بوقائع شاهدة من حياتنا المعاصرة تُؤكد أن الفضيلة لا تزال تنبض في زوايا مجتمعاتنا، وإن خَفَتَ صوتها.. وسنُنبش في سجلات التاريخ القديم والحديث لنُبرز أمثلةً لامعةً لشخصيات جسّدت هذه المعاني فخلدها الدهر.. وسنحتكم إلى الأدب والشعر والفن كمرآةٍ عاكسةٍ لصراع الإنسان الأزلي بين الخير والشر، بين الفضيلة والخطأ.

إنّ الفضيلة، يا عزيزي القارئ، ليست غاية يصعب بلوغها، بل هي رحلةٌ يوميةٌ تبدأ بدمعة صدقٍ تنزل على خدّ الضمير، مُعلنةً عودة الروح إلى مركزها. فلنخُضْ سويًا هذه الرحلة، عسى أن نجد في نهايتها سلامًا يُسترد، ونورًا يُضيء الدروب.

حاتم إبراهيم سلامة
Salama٢٢٧@gmail.com

يسرقون باسم اللّه

قرأت مؤخرا في أخبار الجاهلية، "أن بعض لصوص العرب الأقدمين كان يسرق ليقوت نفسه ومن يلوذ به من الفقراء، وكان من هؤلاء العداء الماهر عروة بن الورد، الذي كان يغير على أصحاب الأموال، ثم يعود من غاراته بغنائم، يشبع منها الجياع ويؤوي الضائعين! وكان يقول لامرأته إذا نفد ما عنده: ذريني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل!!

كان ذلك في الجاهلية الأولى، والشح مطاع والزكاة مجحودة، لا وحي ولا دين الناس حسب غرائزهم وميولهم !" وذكر كاتب أنه في طفولته سمع قصة تجرى على ألسنة الناس من أن امرأة ضعيفة قتل ولدها مظلوما فماذا تصنع؟ لقد ذهبت إلى أحد الفتاك تبثه حزنها وتشكو عجزها وتناشده أن يقف إلى جانبها، فقال لها الشقى الكبير: سأقتل خصمك لله، لا أخذ منك شيئا.!

فما أزها السخرية حينما تتدلل بأنباء هؤلاء.

أليس ما فعله عبد الناصر وعدوانه على أراضي الملاك من ذوي العائلات الكبيرة وتوزيعها على الفلاحين، جانب من السرقة تحت غطاء العدالة الاجتماعية، وأنا أعرف أن هناك من يستعد الآن ليزأر كما يزأر الأسد وهو يقرأ هذه الكلمات، لكنه الحق الذي لا مرية فيه، فقد

اغتصب الرجل حقوق الملاك، ليصنع لنفسه شعبية، ويظهر أمام بلاده في صورة البطل والزعيم، الذي يعيش للشعب ويحمل همومه.. لقد برهنت الأيام أن عبد الناصر كان يحمل حقدا رهيبا ضد الأثرياء والباشوات، حقدا تدفع إليه عقدة النقص قبل أن يكون حب العدل.

ما زلت أتندر للآن حينما وقع الاختيار على أحد شخصيات رجال الأعمال ليدخل دائرتنا الانتخابية ويمثلنا نائبا في مجلس الشعب، لقد كان يشاع عن الرجل أنه لص، ويسطو على أموال الشركات ويقتنص الحرام من الصفقات، ويمارس الخديعة في تجارته في الشرق والغرب.

فلما رأى من يحيطون به من المردة والمنافقين، أن هذه الشبهة يمكن تطيح به، وتذهب بسمعته ومستقبله النيابي، أشاعوا بين العامة والبسطاء مقولة بلهاء، تضحكك تارة، وتجعلك مذهولا تارة أخرة، من هذه العقول الملتاثة، التي صارت تقبل الحرام، وتروي مبرراته من قبيل الحكمة البالغة.

أتعلم ماذا أشاع الخبثاء على الجهلاء؟

لقد قالوا لهم: نعم لقد وقف النائب يوما حينما اتهمه أحدهم وقال له: يقولون إنك سارق، فقال له: نعم أنا سارق، ولكني أسرق من أجلكم، أسرق من الغير لأعطيكم وأمنحكم.

كنت في هذه الجلسة ورأيت بعض البله يرددون مثل هذا السخف، وهم في قمة السرور من الرد المفحم والحكيم، ولا يدرون

أنهم يعلنون عما استقر بأجوافهم من وفاة الدين والضمير والإنسانية والمروءة في قلوبهم.!

كيف ترضى لنفسك أن تأكل من الحرام وتنتفع بالحرام وعلى حساب غيرك من المقهورين، الذين سلبهم اللص الحقير حقوقهم.؟!

ما أبشع الإنسان حينما يموت وعيه، وينعدم ضميره، ويفلس شرفه.!

إن أمثال هؤلاء كراقصة تتعرى بالليل لتفتن الناس، تلهب الشهوات، وتُسيل لعاب الغرائز، ثم تعدوا في الصباح، لتوزع الصدقات والأطعمة على الفقراء والمحتاجين، حتى يبارك الله عملها، ويزيد من شعبيتها، ويمنحها بريقا أكثر في مفاتن جسدها.

يمكن للجوع أن يسوق الناس لأكل الحرام، حتى أن ديننا العظيم راعى هذه الطامة، وكان حكمه الذي أدهش الألباب حينما أسقط الحد عمن دفعته الهلكة والموت جوعا أن يسرق.

وفي الوقت الذي كنت أشاهد فيه رواية البؤساء لفيكتور هيجو، وكيف ساقت المحكمة التي تجردت من الرحمة والإنسانية جائعا فقيرا لأنه سرق رغيف خبز إلى غيابة الجب، وحكمت عليه بالأشغال الشاقة، والسجن الذي سقطت فيه كل معاني العدالة والرحمة.

في هذا الوقت تذكرت ثورة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما عطل الحد في عام الرمادة.. فقلت ما أعظم حضارتنا وأسمى تراثنا عن فرنسا التي يضربون بها المثال اليوم في تقدير كرامة الإنسان.

أرأيتم الرحمة.. وهل يمكن أن نقتبس مثل هذه المعاني من تراثنا العظيم لنفحم به شياطين العلمانية، ومردة اليسار والملاحدة، الذين يطعنون كل يوم في تراث أمتنا وعظمائها.؟ !

ثم يقولون وهم يتصايحون: لا كهنوت في الإسلام، وأبيدوا تراث الكراهية والتخلف.!

أي كهنوت أيها الحوش، وهذا حكم الله يعطل من أجل الإنسان، هل رأيتم مثل هذه العظمة وهذا التسامح في دين من قبل.

هذا هو الدين الأوحد في العالم، الذي سير الجيوش من أجل الفقراء، ومنذ أزمانه الأولى ورجاله الأول، حينما حاربوا مانعي الزكاة، قبل محاربة المرتدين.

إن المعالم المضيئة من ديننا تتعامى عنها بصائر العلمانيين، التي لا تألف إلا النتن، وتحاول أن تجعل في الفضيلة خللا ونقيصة، لكن تراثنا غير هزيل أن يمحق بذاته، هراء هؤلاء جميعا، ففيه من معالم الإشراق ما يعجز عن الوصف والتقييم.

من أخلاق الأعلام

من سعادة الدنيا أن تجد كتابا يبهج روحك، وتجد فيه عبرة او فائدة، وتسير معه مهما طالت صفحاته وتعددت سطوره دون أن تجد أي ملل يصيبك أو فتور يعترضك.

ولأنني من عشاق التراجم أرشدنا بعض الأصدقاء أكرمهم الله إلى كتاب (في وداع الأعلام) للدكتور يوسف القرضاوي والذي كان بمثابة إطلالة رائعة لحياة أهم وأبرز الرموز الإسلامية في القرنين الحالي والفائت، بل كان بمثابة سياحة ممتعة في سيرة نفر من عظماء ممن خدمو الإسلام ودعوا إليه ومثلوا علومه، وكانت لهم جهودهم المحمودة والشاهدة بآثارهم الكبيرة وأخلاقهم الزاهية.

الكتاب ذو قطع كبير إذ يبلغ ٨٠٠ صفحة، وأنت مع قراءتك له لا تشعر بأي ملل بل على النقيض تراه يرفع من همتك ويوقد حماسك ويزيد من بهجتك وأنت تتعرف على تقريظه لهذه الأسماء التي عرفت أغلبها ولم أعلم من قبل شيئا عن بعضها، وبعضهم كنت أعرفه لكن ما جاء في كثير من سيرته كان جديدا علي ومدهشا وثق علمي بهم.

ومما يحمد في الكتاب ويحسب لصاحبه، أنه لم يقصره على من يتوافق معه فكريا وفقهيا، بل وضع فيه أعلاما كان لهم حضورهم وأثرهم لمشهود المعلوم، وذلك من محاسن الأخلاق ومن محامد

الإنصاف، فمهما كان الاختلاف بين الأقران فإن هذا لا يمنع أبدا أن يشيد بعضهم بمحاسن بعض ولا يبخسه حقه وكأنه لم يكن شيئا، ولا وجود له، ليظل هو فقط ومن يمثله على الساحة وفي الصورة، ولعل في هذا درس لكثير من العلماء والدعاة المغالين في هذا العصر الذي نعيشه حينما يتعرض أحدهم لعالم ممن يخالفه الرأي فإنه ينهشه ويسلخه من كل قيمة وكل اعتبار.

والكتاب ثمين قدير يستحق أن يقتنى ويقرأ ومن خلال سياحتي فيه رصدت بعض المواقف الأخلاقية التي أحببت أن أشارك القراء بها، لما وجدت فيها من سمو ورفعة وتوضع ومروءة وشهامة وإنسانية عالية.

أما الموقف الأول فحكاه الكاتب حينما تناول سيرة الشيخ الأديب الكبير علي الطنطاوي فقال: "وذكر الشيخ علي الطنطاوي أنه أخطأ أحد طلابه مره في مسألة علمية، فوبخه أمام زملائه وقسى عليه، فلما عاد الى البيت وراجع المسألة، عرف أن الطالب كان على صواب وأنه هو المخطئ وعندما رجع الى طلابه في اليوم التالي أعلن أمامهم صراحه أن الطالب كان على حق وأنه أخطأ في حقه مرتين، الأولى أنه خطأه وهو مصيب والثانية أنه قسى عليه على غير ما يليق بالعلماء مع تلاميذهم"

ولا شك أن هذا الموقف موقف معلم وملهم، ولو كان أستاذا ومعلما مكان الشيخ الطنطاوي لتكبر أن يقف بين طلابه هذا الموقف،

الذي قد يعتقد أنه موقف يسمه بالصغار والضعة، ولكن الشيخ الطنطاوي كان معلما للأخلاق قبل أن يكون معلما للعلم، فكان هذا التراجع والاعتراف فضلا وعدلا وإنصافا وكرما أظهر طبيعة مسلم متعدل النفس سوي السلوك.

أما الموقف الثاني فكان حينما تناول سيرة الدكتور الجليل عبد الودود شلبي رحمه الله الأمين العام الأسبق للجنة للعليا للدعوة الإسلامية بالأزهر حيث قال: " بدأ عبد الودود شلبي حياته العلمية في مكتب شيخ الازهر ثم ترقى إلى أن صار مديرًا لمكتب الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ثم عمل رئيسًا لتحرير مجله الازهر ومن طرائفه مع الشيخ عبد الحليم محمود أن أرسل له الإمام الأكبر كلمه لينشرها في الافتتاحية، ولكن الدكتور شلبي حال دون نشرها، وحين سأله شيخ الأزهر عن ذلك قال: يا مولانا إن كلمتك يجب أن تكون أرقى كلمه في المجلة ولكني لاحظت أن بعض المقالات يفوقها وهذا ما لا أقبله، فقام الشيخ عبد الحليم محمود وقبل رأس الاستاذ عبد الودود شلبي وقال له: سترك الله كما سترت تخلفي في هذا المقال"

وأنت هنا لا تعرف هل يشيد الموقف بأخلاق عبد الودود في حرصه وأمانته وذكائه في الحفاظ على صورة الإمام الكبر، أم أنه يشيد بتواضع وجمال ورفعة شخصية الدكتور عبد الحليم محمد رحم الله الجميع، فلو كان شيخا مكانه لربما تغطرس وأخذته العزة بالإثم، وهدد وتوعد من اتهم مقاله بأنه دون المستوى، لكن الشيخ عبد الحليم محمود

لم يكن له إلا أن يكون كذلك ويكون تصرفه بهذه الطريقة لأنه كما عرفنا عنه وليًا من أولياء الله الصالحين.

أما الموقف الثالث فكان مع الدكتور حسان حتحوت رحمه الله إذ قال فيه: "ومن إنسانيه الدكتور حسان حتحوت أنه حين ذهب في سنه ١٩٤٨ متطوعًا للعمل في فلسطين في مجال الطب والعلاج ولا سيما في إسعاف الجرحى وعلاج المصابين، جيء بمجموعه من الاسرى اليهود جرحى ولكن حسانا علم أن القيادة العسكرية قررت إعدامهم رميًا بالرصاص، انتقامًا لما ارتكبوه أو ارتكبه قومهم وما زالوا يرتكبونه من قتل النساء والأطفال والشيوخ، إلا ان حسانًا وقف في وجه هذا القرار بكل قوه قائلا: لا ينفذ هذا القرار إلا على جثتي، فهؤلاء أسرى جرحى من حقهم أن يعالجوا كما يعالج كل جريح، ولا يحملون وزر قومهم وقد قال تعالى عن الأسرى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا) وقال تعالى: (فإما منًا بعد واما فداء) وغلبت إراده حسان إرادة الإدارة العسكرية ونجا هؤلاء وعولجوا حتى شفوا، وقد عرف اليهود هذا الموقف وتحدثت عنه الصحف الإسرائيلية وكان سببًا في الافراج عن طبيب مصري كان أسيرًا عند اليهود وزميلا للدكتور حتحوت"

لقد عكس الرجل إلى الدنيا بهذا الموقف إنسانية الإسلام العظيمة وما تميز به من الرفق والرحمة والشفقة بالضعفاء، وهي أخلاق أحرجت العدو وجعلته يكافئ هذا الفعل برد أسير مصري، بل تحدثت

عنه الصحف الإسرائيلية ليعرف اليهود كيف تبدو عظمة الإسلام وسموه الرفيع.!

وأكتفي بهذا المواقف الثلاثة التي أعجبتني من الكتاب الذاخر بالخير العميم لكل من اطلع عليه وقرأ في صفحاته الميمونة.

وصية أبي

جميل منك أن تكون وفيًا لأهلك وبلدك وناسك، جميل جدُا أن تعرف فضلهم، وتُعلي كعبهم، وتقدم إليهم البر وتميزهم بالإحسان، وتضع لهم في نفسك تقديرًا وخاطرًا.. هذا النموذج الكريم يعرف معنى الوفاء ومعنى الانتماء ومعنى قول الله تعالى المتكرر في كتابه الكريم عن بر (ذوي القُرْبى)

حكى لي صديقي المستشار بهاء المري عن نابغة من قريتهم الصواف مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة، وهو شاب من شبابها المجتهدين، ذاكر وتفوق حتى دخل كلية الطب في عقد الثلاثينات من القرن الماضي، ولما تخرج وهم بإنشاء عيادة أوقفه أبوه وأوصاه قائلا: (إياك في يوم من الأيام أن تأخذ ثمن كشف من مريض من الصواف) وبدأ الشاب يمارس مهنته كطبيب جراح، فافتتح عيادة في القاهرة، ثم نجح وأنشأ مستشفى كبيرًا ما زالت في مدينة نصر.

إنه الطبيب (أحمد فتحي بهنسي) من قرية الصواف حيث كانت أبواب مستشفاه وعيادته مفتوحة لأي فرد من قرية الصواف، وما على المريض حال ذهابه إلى العيادة إلا أن يقول فقط: أنا من الصواف، ليتم الكشف عليه وتحديد علاجه دون سؤال أو مناقشة، حتى أن بعض الفلاحين من القرى المجاورة، كانوا يذهبون إليه ويدعون أنهم من الصواف، لكي لا يدفعوا ثمن الكشف وينعموا بالمجانية، التي خصها

لأهل قريته، وكان إذا أصر أحدهم على دفع المال يقول له: أعلم أن لديك مال لكنها وصية أبي.!

من المفارقات أن الرجل البار كان لا يُنجب، وتزوج مرتين فلم يرزق بذرية، حتى وصل إلى سن الخامسة والستين، وكان الفلاحون من قريته حينما ينتهي من الكشف عليهم ويرفض أخذ الأجر، لا يجدون إلا الدعاء له بقولهم: ربنا يكرمك بالولد، ربنا يكرمك بالخلف، كان الرجل يسمع تلك الدعوات ولا يلقي لها، بالا لأنه يعلم أنها دعوات تنشد المستحيل وأنها مجرد مجاملة طيبة، فقد فات القطار وذهب العمر.. لكن رب العالمين كان له تدبير آخر مع رجل جبر خواطر الناس، وقدم الخير لأهله وذويه، ولم يبخل عليهم بعلمه الذي رزقه الله إياه.. أراد الله الملك القوي أن يجبر بخاطره كما جبر خواطر الضعفاء والمساكين والمحتاجين.

فماذا حدث؟ لما ماتت زوجتيه اللتان رحلا دون إنجاب منه، رأى أن يتزوج بثالثة يأنس بها بدلا من الوحدة، وكان وقتها فوق الخامسة والستين من عمره، ويشاء الله أن تنجب منه طفلا ذكرًا يراه وتكتحل به عينه بعد هذا العمر الطويل من الحرمان القاتل، ويتجدد الأمل في روح الرجل بأن يرى له ذرية تحمل اسمه بعد انقطاع الرجاء، ويموت ويلقى ربه بعد مولد الطفل بعام واحد.. مازال الناس إلى اليوم في قرية الصواف يتذكرون الطبيب الشهم ابن الصواف الكريم الذي نفذ وصية والده وظل على العهد إلى أن لقي ربه.

الرئيس يبكي.!

أبراهام لينكون أو الرئيس الإنسان.. إنه فخر أمريكا ومصلحها الأكبر الذي أستطيع أن أقول وكلي ثقة: إنها في ثقافتها وسياستها وتعاملها وعلاقتها لم تستق منه قيمه ولم تتعلم منه أخلاقه.. تستطيع أن تعرف ذلك وتتوصل إليه لو قرأت سيرته وتعرفت على مواقفه.. وقارنت بين ما كان عليه وواقع أمريكا اليوم.. بل تجد نفسك حيال ما تقرأ في حالة اندهاش كبير.! فكيف لهذه الأمة التي ملأت الدنيا حربًا وقهرًا ودماء أن تنتج مثل لينكون وإنسانية لينكون.. لا شك أنه حدث فريد في تاريخ هذه الأمة التي ملأت حياتنا قلقًا واضطرابًا!

كان يعظ الناس ويحب العدالة كثيرًا ويكره الظلم ويعطف على الفقراء حتى أنه تزعم الحركة التي تدعو لإلغاء الرق في وقت كان العبيد يباعون في الأسواق.. عمل لينكون محاميًا ووجد لنفسه فرصة للدفاع عن المظلمين وإشباع حبه للعدالة والإنسانية وكان قوله الشهير: "المحامي الشريف لا يجعل جمع المال نصب عينيه، إذ أن أعظم أجر يتقاضاه المحامي الحر هو انتصار في قضية ترافع فيها عن متهم برئ، أو فقير مظلوم أو يتيم أو أرملة أرجع إليهم جميعاً حقوقهم المهضومة، أما المال فهو هدف التاجر، وهناك فروق بين التجارة والمحاماة "

انقل لك هنا بعض المواقف المذهلة التي تجعل الإنسان في قمة روعته حينما يؤمن بإنسانيته ويمتلئ قلبه بحب البشر والشفقة عليهم والشعور بهم.

يروي أحد قواد جيشه فيقول: في الأسبوع الأول الذي تسلمت فيه العمل صدر حكم المحكمة العسكرية بإعدام أربعة وعشرين جنديًا من الفارين من الجيش، ثم أُرسل الحكم إلى الرئيس للموافقة عليه فرفض فذهب القائد إلى مدينة واشنطون وقابل الرئيس، وفال له " سيدي الرئيس، إننا إذا لم نمثل بهؤلاء الفارين شر تمثيل فإن الجيش يكون في خطر عظيم، والشفقة على الاقلية ظلم للأكثرية " فأجاب لنكولن : " أيها القائد :إن الولايات المتحدة قد مُلئت بالثكالى من الأرامل وأرجو ألا تسألني أن أزيد الطين بلة فإني لن أجيبك إلى رغبتك" وعفي عنهم جميعًا .

وفي يوم من الأيام أصدر أمرًا بالعفو عن جندي حكم عليه بالقتل؛ لأنه وجد نائمًا في مركز حراسته، ثم قال:" إني لا أستطيع أن ألقى الله ودم هذا الشاب المسكين على ملابسي.. إني لا أقبل أن يضرب بالرصاص.. أما الجندي فقد وجد معلقا صورة لينكون على قلبه كاتبا عليها: "حفظ الله الرئيس لنكولن".

وبينما كان لنكولن يزور جرحى الحرب إذ سمع جريحا يئن وهو في النزع الأخير ويردد: أمي أمي.. فبكى لينكون وذهب إليه وانحنى عليه وسأله ماذا أستطيع أن أفعل لك يا بني العزيز؟ فأجاب الجريح: أرجو إرسال هذه الرسالة إلى أمي، فازداد بكاء لينكولن وأقنعه بصوت يملؤه الحزن والعطف بتنفيذ رغبته وأمر بإرسال رسالته في الحال إلى أمه مع راية خاصة.

وحدث أن رأى مرة غلامًا صغيرًا ممتقع اللون نحيف الجسم ضعيف القوة واقفًا بجانب القصر الابيض فدعاه وقال له: أقبل يا بني وأخبرني بما ترغب فتقدم له الغلام وأحنى رأسه احتراما له وقال والخوف يبدو من نبرات صوته : يا مولاي كنت أعمل في مصنع وطردني صاحبه فمرضت وذهبت للمستشفى ومكثت به مدة ليست بالقصيرة ، وأنا الان لا مأوى لي فقد قتل أبي في الجيش وماتت أمي وأنا صغير وليس لي أخوة ولا أخوات ولا أصدقاء وليس هناك من يعولني ، ثم أخذ يبكي فامتلأت عينا لنكون دموعا وسرعان ما أفرحه وأدخل السرور على قلبه وأمر الموظفين بالعناية به والقيام برعايته وتربيته ..!

ما أروع لينكون وما أروع أمريكا لو أنها أخذت بخصاله وسماته فأحست بآلام الشعوب وشعرت بهموم الأمم ووفرت على البشرية هذه الأرواح والدماء التي تذهب رخيصة كل يوم.!

ابصُقوا في وجوه الفَجرة

عجبًا لهؤلاء العُتاة الفجَرة الظَلمة، أغبياء العقول وسفلة الأفهام.. ففي الوقت الذي نجد الأمة كلها عن بكرة أبيها تئن للمصاب الجلل، والهول الساحق، والكارثة المفجعة، وتترحم على شهيدات الفقر وضحايا لقمة العيش.

في الوقت الذي نرى كل بيت في مصر قد أصابه الفزع وعانقه الحزن والناس كلهم يبكون بدلا من الدموع دما مدرارا وحزنا قهارا.

في الوقت الذي نجد فيه كل من سمع النبأ وهو يتحسس قلبه الذي انقبض وشعر فيه بوخزة موحشة خلفت فيه كآبة هائلة.

في هذا الوقت نرى بيننا أناسا لكنهم ليسوا منا ولا نحن منهم، أناسا صدئت قلوبهم أو أنها صارت كالحجارة، وإن كان من الحجارة ما يلين.

فتيات مكافحات لقين حتفهن وتربص بهن الموت في حادث على الطريق أليم، وهن ذاهبت مع إشراق يوم حزين يبحثن عن عمل يواجهن به الفقر المتصاعد ولقمة العيش التي عزت.[1]

[1] -وقع حادث مأساوي في قرية كفر السنابسة بالمنوفية، حيث اصطدمت شاحنة نقل ثقيلة بحافلة صغيرة تقل فتيات عاملات باليومية، مما أسفر عن وفاة ١٨ فتاة وسائق الحافلة .وقع الحادث على الطريق الإقليمي شمال القاهرة، وانتهى بكارثة هزت القرية والعديد من وسائل الإعلام .

فبدلا من أن نرسل جميعا عليهن الرحمات، ونأسف ونأسى لحال أمتنا التي صار وضع المرأة فيها إلى هذا الهوان.

وبدلا من أن نضع جميعاً على قبورهن أكاليل البطولة والفداء.

وبدلا من أن يشعر كل مصري بأن الراحلة منهن كانت أخته أو بنته.

بدلا من هذا كله.. إذا بنا نسمع تلك الأصوات الفاجرة التي يقول بعضها: اللوم كل اللوم على أولياء أمورهن فأولى للمرأة أن تصان ولا تمتهن في عمل يفضي بها إلى الموت.

ونرى وضيعا آخر يقول:

كل بنت خرجت إنما كانت تبتغي الخروج على سلطة ابيها عليها وتستقل عنه.

بل لعلها خرجت لتجهز نفسها وتمضي مع عريسها بقائمة جهازها لتهدده بها في يوم من الايام.

او انها خرجت لتناطح ابيها وتشتري ما يرفض شراءه

او خرجت لـ – تشقط – عريسا.

وأمثال هؤلاء شياطين مَردة ماتت ضمائرهم وقلوبهم وإنسانيتهم، حينما يتجرؤون بمثل هذا العبث والضلال أمام محنة

إنسانية تقصم الظهور، ولا تدع الإنسان منا يدور برأسه غير الحزن والهم العظيم.

لقد رأينا في حادثة الفتيات المسكينات عجائب البشر، فبقدر ما رأينا الأمل يموت والمستقبل يموت، رأينا كذلك الضمير يموت، ألا إن كل غليظ ماتت مشاعره بهذه الصورة فلا تحسبوه من جملة البشر، بل إنه صار وحشا قبيحا في صورة إنسان.

هؤلاء الذين يتجاسرون بالوقاحة مستهترين بفاجعة الموت الذي قصف حياة الشابات وهن في عمر الزهور، لكم تمنيت أن أراهم وهم يتفوهون بهذا الجحود حتى أبصق عليهم، فهؤلاء الناس وأمثالهم لا عقاب لهم إلا بصقة لسان تحمل كل معاني الاستقذار والتقبيح.

يقول توفيق الحكيم: "ليس العقل ما يميز الإنسان عن الحيوان، ولكن الضمير"

الانتقام من الجماجم

نقل النبأ صورة جمجمة من متحف الإنسان في فرنسا مكتوب عليها: (ترجع لأحد قادة القاهرة الذي كان شريكًا في جريمة اغتيال الجنرال كليبر، تم التبرع بها من قبل البارون لاري.) تعود الجمجمة لطالب مصري عمره ١٥ سنة كان قد ساعد الطالب السوري سليمان الحلبي على اغتيال قائد الحملة الفرنسية على مصر الجنرال كليبر عام ١٨٠٠.

بعد الاغتيال قبض الجيش الفرنسي على سليمان الحلبي و ٩ من معاونيه وكانوا وقتها طلابا في الأزهر الشريف وقاموا بإحراق أيديهم ثم صلبهم أحياء على الخوازيق في منطقة تل العقارب بالقاهرة.. وبعد موتهم تم أخذ جماجمهم وإرسالها إلى فرنسا لتعرض في متحف الإنسان!

هذه صورة إن عبَّرت عن شيء فإنها تعبر في المقام الأول عن بشاعة فرنسا والوحشية التي امتلأت بها قلوب جنودهم، ويظل متحف الإنسان وصمة عار في جبين هذه الأمة المتوحشة التي احتلت البلاد ونكلت بالعباد.

إن العبث بالجماجم، متعة تشفي غليل المنتقمين وتبرد نارهم، وهي دوما من فعال البرابرة والمشركين ولا تكون أبدا من قوم يعلمون

أن الله كرم الإنسان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم علم المسلمين أن إذا قتلوا أن يحسنوا القتلة، وها هو الله سبحانه وتعالى قد أرسل النحل يحوم حول رأس عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، المعروف في التاريخ الإسلامي بحمي الدبر، أي النحل، لحمايته من نذر المُشركين بقطع رأسه لشرب الخمر فيه، فقال: اللهم إني أحمي دينك فاحمي جسدي ولحمي من المشركين.

في عام ٨١١ ميلادية وقعت معركة بين قوات الإمبراطورية البيزنطية، بقيادة الإمبراطور نقفور الأول، والبلغار، بقيادة خان البلغار (كرم) في ممر بليسكا وانتصر البلغار انتصارًا ساحقًا وقُتل الإمبراطور نقفور الأول في المعركة، وتقول الأسطورة التاريخية تقول إن خان كرم أمر بفصل رأس الإمبراطور نقفور عن جسده، ثم قام بتجريد الجمجمة من لحمها وتغليفها بالفضة، وتحويلها إلى كأس شراب ليستخدمها في الاحتفالات والولائم كرمز لنصره الساحق على الإمبراطورية البيزنطية.

وفي بعض الثقافات القديمة، كان تحويل جمجمة الخصم إلى كأس شرب يعتبر رمزًا للقوة، حيث يتم امتصاص قوة العدو أو شجاعته بطريقة طقسية.

كما ذكرت السجلات الصينية القديمة هذه الممارسة بين قبائل شيُونغنو (أسلاف الهون المحتملين). في عام ٢٠١ قبل الميلاد، قُتل ملك اليوي تشي على يد ملك الشيُونغنو، ماودو تشانيو ويقال إن ماودو

حول جمجمة الملك المقتول إلى إناء للشرب، يعود أقدم سجل صيني لتقليد القحف إلى حوالي عام ٤٥٣ قبل الميلاد، عندما قام المنتصرون في معركة جينيانغ بصنع كوب نبيذ من جمجمة عدوهم.

وكذلك فعلت قبائل السكيثيين حيث كانوا يقطعون رؤوس أعدائهم، وينظفون الجماجم، ثم يغلفونها بالجلد لاستخدامها كأكواب، وأنهم كانوا يفخرون بالاحتفاظ بجماجم أكثر الأعداء كأدلة على قوتهم وشجاعتهم، الفكرة إذن تقليد تاريخي يرمز للانتصار لدى كثير من الأمم.

وإذا كنا ندين مثل هذا الفعل النكر، فقد قرأت في تاريخنا للأسف ما يشبهه، فهل مما يدل على حقد عنيف وعداوة غريبة الشكل

كان أحمد بن نصر الخزاعي ممن تعرضوا لفتنة القول بخلق القرآن فأرسل الواثق في طلبه، فحمل إليه، ولم مثل عنده نوقش فقالت أحد المعتزلة هو حلال الدم، وقال أخر: اسقني دمه، وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب، ثم ضربت رقبته، وحز رأسه، وطعنه الواثق بطرف الصمصامة في بطنه، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها وأقيم عليه الحرس، وكتب في أذنه رقعة: هذا رأس الكافر، المشرك الضال، ولم يزل مصلوبا ست سنين، ثم حط وجمع بين رأسه وبدنه، ودفن بالجانب الشرقي من بغداد.

ست سنوات كاملة تصل جمجمته! فأي غل كان هذا وأي جريمة جناها، وكيف يكون كافرا وهو من العلماء الموحدين.

إنسانية البهيّ

هل تتخيل أن يكون في مصر مسؤول شريف نزيه محترم أمين ذو ضمير يراعي حق الله ويؤدي واجبه المنوط به والذي تحتمه عليه وظيفته ومسؤوليته؟

أعتقد أن هذا لا يحدث كثيرًا في مصر، ولو أنه حدث لكان نادرة الزمان وأعجوبة الأيام.. كما أنه لو حدث فإنه لا يستمر كثيرًا لأن المنظومة الفاسدة لا تقبله بينها، فإما أن يفسد ويعطن كما هو حالها، وإما أن يخرج ويطرد.. فهم لا يريدون إلا لصًا مثلهم، يأكل السحت والحرام ويهمل شؤون الناس، وينمي الفساد ويعقد الصفقات المشبوهة، ويوغل في الحرام، ويضرب بمصالح الناس عرض الحائط.

والحق أن بعضًا من أصحاب الشرف والمروءة الذين يذكرهم التاريخ ويسجل لهم نزاهتهم وسموهم وإنسانيتهم، لازالوا عالقين في الاذهان ولازالت مواقفهم شامخة عالية، لكنها حينما تُذكر بيننا، أو نتذكرها نحن المصريين، يخيل إلينا أنها أساطير، وأنها من ضروب الخيال، ومن حكاوي ألف ليلة وليلة، لأن الفساد فينا مطبوع، وبيننا مستوطن، والخونة الفجرة والسراق اللصوص نراهم يعتلون ويحتلون المناصب الكبيرة، ويقودون أمور الدولة، ويتحملون مسؤولية الناس.. ولله در رسولنا الكريم حينما قال: (إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.!)

وبين يدي الآن وأنا أقلب في تاريخ الأعلام والأماثل هذه القصة الإنسانية الراقية للوزير الإنسان العلامة المفكر الكبير الدكتور (محمد البهي) الذي تقلد وزارة الأوقاف عام (٦٢- ٦٤ م) فماذا حدث؟

قام رحمه الله في يوم من الأيام بجولة تفتيشية في إحدى المحافظات، وكان الأمر سرًا لا يعلمه أحد من الوزارة، ولم يصحب معه أحدا من الموظفين، وحينما هم بعبور الشارع للوصول لباب المديرية، لاحظ من بعيد امرأة مسنة تُحاول الدخول إلى المبنى، ثم رأى يدًا تمتد من وراء الباب لتدفع المرأة فتسقط على الأرض، وتقوم المسكينة لتنفض عن ملابسها التراب، وتحاول الدخول مرة ثانية، لتعود نفس اليد القاسية لتدفعها مرة أخرى، وأمام هذا المشهد اللاإنساني، وقف الوزير الانسان الدكتور (محمد البهي) بعد أن استنفرت حماسته واستشاطت حميته، وثارت غيرته وتولد غضبه، فأسرع بعبور الطريق غير مبال بحركة المرور الكثيفة، وعند الباب وجد امرأة في العقد السادس من عمرها، فسألها عن أمرها، فأخبرته بأنها أرملة أحد موظفي الوزارة، وقد توفي زوجها منذ تسعة أشهر، بعد أن ترك لها أولادًا أربعة، كلهم دون سن الكسب، وأنها منذ وفاته وهي تتردد على المديرية لتسوية معاشه دون طائل، حيث يحال بينها وبين الدخول على النحو الذي رأى! وإن دخلت لا تجد من يستجيب لشكواها.!

ولم تكن المسكينة بحاجة لأن تشكو فاقتها وفقرها، فالحال أمامه واضح من ثيابها المهلهلة! ولما انتهت من كلامها هدأ رحمه الله من

خاطرها، وطلب منها الانتظار حتى يستدعيها، ثم دلف إلى مبنى المديرية.. ليبدأ تفتيشيه المفاجئ، وقد رأى بنفسه وعلى الطبيعة، جانبًا مما ينتظره من مفاجآت بالداخل، وكما توقع كانت هناك فوضى كبيرة، فالعاملون يجلسون جماعات وأفراد يُطالعون الصحف والمجلات ويحتسون القهوة والشاي، ويتجاذبون الحديث والنقاش في أمور السياسة والأدب وأخبار المجتمع وأفلام السينما و....و....، بينما المتخلفون عن العمل أكثر بكثير من الحاضرين، فأيقن أن الرقابة قد غابت، والضمير قد انعدم.. وقام بجولته وفتش وراجع وسأل وكانت الحصيلة مؤلمة، ثم طلب الملف الذي حفيت المرأة طيلة الشهور التسعة في السعي خلفه، فإذا به على الحال التي كان عليها يوم توفي زوجها، لم يتحرك من موضعه وإنما دُفن بين عشرات الملفات.. وفي غضبٍ كبير تساءل رحمه الله كيف يكون الحال لو كانت هذه المرأة أصغر سنا؟ أو على مسحة من جمال؟ أو ميسورة الحال قادرة على العطاء؟

هل كانت أوراقها تتأخر تسعة شهور؟

وكيف يستطيع مثلها أن يعيش طيلة هذه الشهور التسعة دون مورد؟ هل تتسول أم تسرق؟

هل تفرط في أولادها وتلقيهم إلى الضياع والتشرد؟ أم تبيع أثاث بيتها وهل لمن كان على مثل حالها أثاث أم تبيع ماذا؟!!!

تساؤلات غاضبة نطق بها الانسان الثائر الغيور ولم يسمع عنها جوابا.!!

وأصدر تعليماته أن يرسل الملف فورًا إلى ديوان الوزارة مع مخصوص، على أن تبحث الحالة، ويعد تقرير في خلال ساعتين من وصوله.. ولما وصل الملف للوزارة، لقي نفس الاهمال ولم يستجب أحد لقدومه، لأنهم لا يعلمون أن الوزير هو الذي أرسله بيده، فلما وصل (البهي) في الغد طلب الملف الوارد بالأمس، وإذا به كما هو.. فأحضر المسؤول وصرخ فيه غاضبًا وهو يقول: ماذا تفعل المسكينة وأطفالها؟ من أين يعيشون؟ أما كفتهم الشهور التسعة الطويلة، حتى يمتد عذابهم تسعة أخرى وربما أكثر؟ ولو كانت هذه المرأة زوجتك أو ابنتك أو أختك أكنت ترضى لها هذا الموقف؟ ووقع الجزاء على الموظف الذي أهمل وعلى الموظفين بالمديرية الذين تسببوا في تعطيل صرف المعاش هذه المدة.

وأمام هذه القصة الرائعة والمشهد الإنساني الفريد، والرجولة الفذة، لا نستطيع إلا أن نتحسر على حياتنا ومناصبنا التي اعتلاها خونة لصوص، لا يراعون ضمائرهم ولا يعرفون الله ويهملون مصالح البلاد والعباد.

ثمار الشهامة

الشهامة والمروءة أحيانًا تشعر أنها صارت أخلاقًا غريبة أو عملة نادرة، من كثرة ما ترى من مشاهد الغدر والدناءة والخيانة والخسة والنذالة.

وهي الملامح التي تقتل نوازع الخير في نفس كل إنسان فتضطره أن ينكفئ على ذاته، فلا يُبادر بأي خير يقدمه للناس، لأنه أيقن أن هذا الزمان لا يستحق أحد فيه أن تقدم له أي خير.

وهي النقطة التي قد تبدو جوهرية ومنطقية تتصادم مع رفض الإسلام لها حينما أمر المسلمين أن يقابلوا السيئة بالحسنة، ويحسنوا حتى لمن أساء إليهم، وهنا تكون قيمة الأخلاق وقيمة السمو الذي تعتليه النفس وتمتطيه حفاظا على عنصر الخير في الحياة، ومما ينسب إلى عيسى بن مريم عليه السلام قوله: "إن الإحسان ليس أن تحسن إلى من أحسن إليك إنما تلك مكافأة بالمعروف ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك"

ذكر أحدهم قصة مليونير بدأ حياته عاملا في محطة بنزين، واستطاع في أثناء عمله أن يتعرف إلى أصحاب السيارات، وذات يوم توقفت سيارة وعجزت عن الحركة واستنجد به صاحب السيارة ولم يهمله أو ينصرف عنه أو يقول له: «أنا موش فاضي». بل ترك كل شيء

في يده وتفرغ للسيارة المعطلة، وتحركت السيارة وأعجب المليونير صاحب السيارة بالشاب النشيط وعرض عليه أن يعمل في جراج يملكه، وقبل الشاب ووافق على المرتب البسيط الذي عرضه عليه المليونير، وبعد شهور أصبح الشاب مدير الجراج، وبعد سنوات انتقل مديرا لاحدى الشركات التي يملكها المليونير، وبعد وقت أصبح الشاب شريكا للمليونير، وبعد سنوات من الصبر والكفاح أصبح مليونيرا.

لم تكن هذه ضربة حظ لهذا الفتى، او حظا سعيدة كان معه على موعد منشود، وكذلك لم هذه النتائج العظيمة مكافأة كفاح وعمل واجتهاد أبدا وعلق به، وإنما كانت في المقام الأول ثمرة شهامة ومروءة وعمل خير دفعته إليه أخلاقه العالية.

ولعلها قصة نتعلم منها أن نندفع إلى قضاء حوائج الناس، ومساعدة كل محتاج، دون انتظار أجر أو ترقب حظا تتوق إليه أشوقنا المتطلعة إلى الثراء، وإنما نفعله ابتداء، لأنه خلق وجب أن نتصف به وجدا جزاء أم لم نجد، فيكفي أن يكون الجزاء سعادة تهلل لها أرواحنا، وأجرا أكيدا يدخره الله لنا.

وإذا كان بعضنا قد ساعدته الشهامة ان يجني من أثرها حظا ماديا، فهناك سهامه تخلف في ركابها حظا معنويا أعظم في أثره من الدنيا وما فيها.

ليست نصاحة

فكرت كثيرًا قبل الكتابة في هذا الأمر، أو في هذه الجريمة، لأنها وللأسف، يمكن أن نجد الكثيرين من أهلنا وجيراننا وإخوتنا قد وقعوا فيها، ويمكن كذلك أن نرى من نخصهم بالقرب والمحبة والانتماء للقرية الواحدة، قد جنوا إثمها.

ولكن منذ متى ونحن نراعي الناس ونبدي خواطرهم أمام الحق، ألا إن الحق أحق أن يُتبع ويُعلن ويُنصر، ولو كان حد سكينه على رقبة آبائنا وأمهاتنا.. لكن لا ضير أن ننبه ونلفت ونوصي ونذكر، أننا لا نقصد شخصًا بعينه، ولا فردًا بذاته، فمقالي اليوم خالص بحت لوجه الحق والحقيقة.

وبعد هذه المقدمة الطويلة، التي فرضتها علينا نفوس الناس وصغر عقول بعضهم وسوء مظانهم، يسأل القارئ في شوق عارم، ما القصة وما القضية وما الجريمة؟ إنك ترى الواحد من الناس، يصلي لربه، ولا يترك فرضا في المسجد، ويسارع لكل أنواع الخير والبر والتقوى، ثم هو إذا هم ليبني بيته، سارع في همة الابطال، وعزيمة المجدين، ليأخذ مترا أو مترين من الشارع العام، ليضمه إلي بيته ويوسع فيه على حساب الناس وطريقهم.

يفعل هذا وهو لا يدري أنه أدخل على داره لعنة، وحراما، يعذب الله تعالى عليه إلى يوم الدين، ويعتقد أن ذلك نصاحة وذكاء

وشطارة، وما هي إلا خيابة وجشع وطمع وقلة دين، يفعل هذا ولا يدري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله من غير منار الأرض- أي أخذ منها ما ليس له بحق.. ولعل القوانين قديما كانت متساهلة في هذه الحقوق، فمن كان يجور على الشارع العام بمتر أو مترين، يشتري من الوحدة المحلية ويدفع ثمن ما نهب وتعدى.

ولكن مهما وجدت المبررات والمرخصات، فقد أدخل الحرام لا إلى بطنه، ولا إلى بطون أبنائه، وإنما أدخله على بيته كله، فحرمة المال العام، أشد وأرهب من حرمة المال الخاص الذي يشترك فيه الجميع ويملكه الجميع، وعلى من فعل هذا الجرم، ويجد فيه بشتى الصور، تدفعه إلى ذلك نفس دنيئة طامعة غير قانعة، أن يتوب إلى ربه ويتحلل مما نهب إن وجد إلى ذلك سبيلا.

سمعت مرة أحد المحاضرين يحكي عن والده التقي فيقول: انسكبت جرة الماء ذات يوم من يد أمي في دهليز الدار، فخرجت وأتت ببعض التراب من الطريق العام، ووضعتها على المياه المنسكبة حتى تجف الأرضية، وتصبح آمنة لمن يمشى عليها، وعندما حضر الرجل الصالح من صلاة العصر روت له أمي ما حدث، فطلب منها أن تجمع هذا التراب رغم تحوله إلى طين، وتعيده على الفور إلى الطريق العام، وحثها على أن لا تفعل ذلك مرة أخرى، وقال لها: أن هذا التراب يعتبر مال عام، وأن حرمته أشد من حرمة المال الخاص، وأنه أسرع الطرق لخراب البيوت وهدمها، وحكى لها قصة سمعها من الإمام عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الشريف -رحمه الله – وهي أن عصفوراً جاء إلى

سيدنا سليمان عليه السلام وقال له: إني مع ما تراني عليه من صغر وضعف يمكنني أن أهدم ملكك. هدما تاما."ويبتسم سليمان عليه السلام، ويسأله: كيف؟ فقال: أذهب إلى البحر فأبتل فيه. ثم أتى إلى أرض من أرض الأوقاف. وأتمرغ فيها، فيعلق بي من ترابها، ثم آتي إلى قصرك فأنفض نفسي فيه، فما إن يحصل في بيتك من أرض الأوقاف شيء، إلا كان ذلك سببا في خراب قصرك وملكك.

يااااالله.. ذرات من التراب يمكن أن تهدم ملكًا لا مثيل له في حياة الملوك؟!

فما بالك بالطامعين النهابين الذين يسرقون الأشبار والأمتار.. ويوم يموتون، لا يأخذون شيئًا معهم، إلا نهبًا حرامًا يضرم النار في قبورهم، وما تركوا لأبنائهم سعة، ولكنه ترك حرامًا يأكل البركة من حياتهم.

نعوذ باللّه من القاعدة ٩٩

حينما زرت نيجيريا منذ سنوات وجبت مناطقها النائية وشاهدت فيها طبيعة الناس والسكان وما يعيشون فيه من أحراش وأكواخ، وتلمست ملابسهم البالية وحياتهم البسيطة الهينة، التى لا تقوم على شيء من الجهد والمعاناة، قيل لى يومها: إن هؤلاء هم أسعد شعب في العالم، فتعجبت وقلت لماذا: فقيل لى: لأن الواحد منهم يقوم من نومه ولا يحمل هما لأي شيء، ولا يفكر في أي شيء، فهو يعيش يومه ولحظته ولا يأسى أو يقلق على شيء من متاع الدنيا، فلا أطيان ولا أملاك ولا عقارات يقضى في تدبيرها كل عمره وتأخذ من أعصابه وصحته، ولذلك تجد أعمارهم تطول لأنها خلت من المنغصات والمهلكات.

القناعة والرضا عند الفقراء، ليستا حجة البلداء والمفلسين والمحتاجين، ولكنها والله نعمة الله على كثير من عباده، نعمة لمن يفقه حقيقتها وأسرارها، حينما تجلب لصاحبها السعادة والهناء وراحة البال.

أنت تسعى إلى المال وتتكالب عليه وتُشقى نفسك به، ويشغل هذا المال كل حياتك وتفكيرك، ويأخذ من اهتمامك وعقلك وجهدك، حتى ينسيك معنى حياتك الحقيقية، ومحاولة الشعور فيها بالسعادة المرجوة.

ستمشي بين الناس يومًا وأنت تشعر بالفخر لأنك غنى ثرى صاحب ثروة ومال، تركب أفخم السيارات، وترتدي أبهى الثياب، حينما تسير بين الناس ستشعر بهذا الفخر وهذا العز وهذا التعاظم، ولكنك ما أن تغلق عليك بابك، حتى تتيه في الهموم والغموم والأتراح والأحزان، والتفكير المزمن الذي يأكل العقل في المال والثروة والمشاريع، ومن دفع ومن أنجز ومن تراخى ومن صدق ومن كذب.

يذكر أنه في يوم من الأيام قال التاجر الثرى لصديق له: ما بال الخادم أسعد منى في حياته على الرغم من أنه لا يمتلك أي شيء، وأنا كبير التجار لدي كل شيء ومع ذلك فإني متكدر المزاج بشكل دائم!! فَكر صديقه قليلا ثم قال للتاجر: جرب مع الخادم قاعدة الـ ٩٩، تعجب التاجر وسأله عن هذه القاعدة الغريبة، فقال له: نضع ٩٩ دينارًا في صرة ونكتب عليها ١٠٠ دينار ونضعها عند باب هذا الخادم في الليل ونطرق الباب وننظر ونراقب ماذا سيحدث بعد ذلك .

وبالفعل نفذ التاجر نصيحة صديقه، وعندما عثر عليها الخادم أدخلها إلى منزله وبدأ يعد ما بها فوجدها ناقصة دينار واحد، فقال في نفسه: لابد أن هذا الدينار الناقص قد سقط في الخارج، فخرج هو وأهل بيته جميعاً يفتشون عن هذا الدينار الضائع وذهب الليل كله وهم يفتشون عن الدينار الضائع ولكن دون جدوى.

ثار الخادم على أهل منزله وشعر بالغضب الشديد وحزن الجميع على فقدان الدينار بعد أن كانوا هادئين منعمين بحياتهم

البسيطة، وفى اليوم التالى حضر الخادم متكدر المزاج عابس الوجه يبدو عليه الإرهاق والتعب ناقم على حاله على غير عادته، وهنا علم التاجر معنى قاعدة الـ ٩٩.

نحن دائما ننسى الـ ٩٩ نعمة التى وهبنا الله عز وجل إياها، ونقضى طوال حياتنا نفتش عن النعمة المفقودة، فلا نستمتع بالنعم المتوفرة لدينا بالفعل، ولا نعثر على النعمة المفقودة، وهكذا نكدر أنفسنا ونكدر عيشنا وننسى ما نحن فيه من خير ونعم بفضل الله: عز وجل.. فلنحمد الله ونسأله من فضله وكرمه وإحسانه وهو القائل جل في علاه (ولسوف يعطيك ربك فترضى).

الانتقام المسعور

صدق من قال بأن الحقد أعمى.

بل صدق من قال بأن الحقد لا عقل له.

نعم حينما يستبد الحقد والكره بالمرء، يصيره وحشا كريها تضج أعماقه بالبغض المستعر الذي لا يرحم ولا يعقل ولا يبصر..

انظر إلى مشاعر هذا الحقد التي تتجلى أكثر ما تتجلى في الرغبة العارمة في الانتقام، فالمرء ساعة الانتقام يريد أن يدمر كل شيء ويقضي على أي شيء، ويبتر أي صلة أو علاقة تمس خصمه الذي يكيد له أو تعبر عنه، فيمكن له أن يتخطى رغبته في الانتقام من النفس والروح والجسد، إلى الانتقام من الجثة الهامدة الميتة، يمكن كذلك أن ينتقم الجماد نفسه الذي يتصل بهذا الخصم، فيدمر بيته، أو يقطع شجرته، أو يحرق حقله ومواشيه.

يريد محو كل شيء يمت له بصله، ليقضي على ذكره في الوجود.

ومن هنا جاء الاسلام فأمر بالبر حتى في القصاص والانتقام، قال تعالى: (ولا تزروا وازرة وزر أخرى) أي لا يحاسب على ذنب المرء إلا الذي اقترفه، فلا ذنب لأهله وعشيرته، أو ولده وزوجته.

هكذا تكون التقوى أيضا في العقاب.

العباسيون في مشاعرهم تجاه الأمويين، كانت تتأجج قلوبهم كقطع الجمر الملتهبة المتوهجة، وكانت أحاسيس الانتقام في نفوسهم كفيح جهنم وسعارها الحارق، فهم من عذبوا الهاشميين وقتلوا سبط النبي صلى الله عليه وسلم.

انتقموا من كل شيء.. من الدور والقصور، قبل الرجال والنساء، حتى أطفال الأمويين لم يسلمون من بطش انتقامهم، بل وصل الأمر لنادرة في التاريخ لم يُعرف مثلها من قبل، فبعد هذه السنين الطوال، ذهبوا إلى قبر معاوية فنبشوه، فوجدوه ترابا، وأفلت من عقاب انتقامهم، فذهبوا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فوجدوا في جثته بعض تماسك، فأخرجوه وصلبوه وظلوا يجلدونه حتى اهترأ، لعل جلد هذا الميت يشفي بعض انتقام المسعور.!

وهذه المشاعر البغيضة الكريهة تصاحب المرء حتى مع مرور الزمان والعصور، ففي هذا الوقت طالعتنا الانباء بما جرى في إيران، حيث انتظرت (زهرة اسماعيل) دورها في المشنقة قبل أيام لإدانتها بقتل زوجها، لكنها سقطت ميتة إثر أزمة قلبية، حينما أجبروها على مشاهدة ١٦ رجلا يشنقون أمامها، في إحدى ضواحي العاصمة طهران، تنفيذا لطلب حماتها التي أرادت مشاهدتها وهي مشنوقة، لتشفي غليلها منها، وقامت بنفسها لتركل مقعد الاعدام من تحت قدميها، حتى ترى جثتها متدلية على حبل المشنقة لبضع ثوان.

لقد كان زوجها المسؤول في وزارة المخابرات الايرانية يعاملها وأطفالها بعنف، مما اضطرها لقتله، ولكن ذلك لم يشفع لها أمام القانون الذي تزكيه أم غاضبة، سيطرت عليها مشاعر الحقد التي ألغت عقلها وتفكيرها أمام جسد ميت، وجثة فارقت روحها الحياة.

الميراث الحقيقي !

جلس الشيخ الشعراوي يومًا إلى جوار والده وسأله: لماذا كان حرصك على دخولي الأزهر؟ فقال له: هل أنت مُصِرّ؟ فقال: نعم.. فحكى أنه كنا في الشتاء، وفي إحدى الليالي، بعد صلاة العشاء، وجد شخصًا ينام إلى جوار المنبر، فعرف أنه غريب، فسأله: يا عم أنت لك حد هنا؟ فقال: لا أنا غريب.. فاصطحبه والدي ليبيت عندنا في القاعة لأن الدنيا كانت بردًا.. ولاحظ والدي أن الغريب كان يحك جلده كثيرًا وهو يتناول العشاء.. فعرف أن ملابسه غير نظيفة، فأحضر له قميصًا وجلبابًا من ملابسه، وقال له : البس دول ..ولم يتردد الرجل ..لكنه لم يكد يرتدي القميص حتى نام على الفور إلى الصباح والجلباب في يده فعرف والدي أنه مُجهد، فطلب من أمي غسل ملابسه، ولما رأت أن تقوم بذلك في الصباح قال لا إنما أريد غسلها الآن ..وبالفعل، أحضر بنفسه حلة، وقام بتسخين الماء، واشترك أبي مع أمي في غسل ملابس الغريب وقاما بنشرها على أسياخ حديد في القاعة لأنها دافئة، وفي صباح اليوم التالي، قال والدي للضيف الغريب: تناول إفطارك، وخذ ملابسك في لفة ومعها الملابس التي عليك.. وقال: إن الغريب سأله: من الذي غسل الملابس؟ فقال له والدي: زوجتي غسلتها فقال الرجل: إن شاء الله سوف تُرزق بعالم.. ولم يكن الرجل يعرف أنها حامل.!

ويغض النظر عن النبوءة والبشرى التي لوح بها الرجل الغريب.. كان هناك شيء آخر لفت نظري وهو هذا الإحسان الفريد الذي تحلى به والد الشعراوي، وحب الخير الذي كان سلوكه مع

الضعفاء والفقراء.. وكيف رواه الشعراوي كأثر فريد وذكرى طيبة وإشادة بهذا الوالد الذي كان آية في الإحسان والبر بالناس والتكرم والعطف على الفقراء والضعفاء وعابري السبيل..!

شيء رائع أن يترك والدك بعد رحيله أثرًا طيبًا أو عملا خيرًا أو ذكرى مبهجة تتغنى بها بعد وفاته وتترحم بها عليه وترويها للأجيال من بعده.. ولعل هذه الذكرى تلهمنا أول ما تلهمنا وتحثنا أن نقلده ونحتذي حذوه ونسير على آثاره فنترك لأبنائنا من قصص الخير ومواقف البر ما يروونه عنا ويتذكروننا به بعد رحيلنا..

وهي لا شك طريقة تربوية مؤثرة.. فالأجيال الناشئة حينما تستمع لهذه القصص وتلك الروايات التي قام بها أجدادهم.. فإنهم يعتزون بها ويعظمونها ويشعرون تجاهها بأنها ميراث الآباء الذي يجب المحافظة عليه وإحيائه واستمراريته، فتجنح أنفسهم للقيام بما يشبهها ويحاكيها.. وقد ضرب القرآن الكريم مثلا رائعًا بهؤلاء الأبناء الذي رفضوا إرث أبيهم في فعل الخير فضيقوا على الناس فضيق الله تعالى عليهم وعلمهم درسًا قويًا مكلفا فعرفوا أن الرزق والرغد في الحياة إنما يكون ببر الفقير والاحسان للمسكين ..قال تعالى : (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ

أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ)[٢]

أما المذهل في الموضوع ومما يدهش اللب حينما ترى أولائك الذين يتفاخرون بأن أباءهم وأجدادهم كانوا لصوصًا ومجرمين أو طغاة جبارين يسومون الناس سوء العذاب، أو على حد تعبيرهم (ينيمونهم من الظهر)..! وتجد أحدهم يروي منتشيًا كيف كان جده أو جد جده كان جبارًا عتيًا يُرهب الناس ويخيفهم وينشر الزعر في مدينته أو قريته ..كما نجد قطاعًا كبيرًا يحتفظ بآثار آبائه أو أجداده كبندقية جده أو سيف والده ، أو العباءة التي كان يرتديها والعصاة التي كان يتكئ عليها والمحفظة التي كان يضع فيها نقوده والساعة التي كان يتقلدها في يده والعمامة التي كان يزين بها رأسه ..لكنك لا تجد أحدهم يحتفظ بموقف في البر والخلق والفضيلة عن أسلافه، لأنهم كانوا فقراء في هذا الميدان ، ولا تجد منهم من يروي حادثة إنسانية عن جدوده لأنهم مفلسون في هذ الجانب ...!! علينا أن نبحث عن الإرث الحقيقي المعتبر الذي نأخذه عن أسلافنا ونعتز به ونرويه للناس، وعلينا كذلك أن نأخذ بناصية البر حتى نترك لأبنائنا ميراثهم في الفضيلة، كما تركنا لهم ميرثًا في الأموال والأطيان والعقارات ومظاهر الدنيا الفانية..

[٢] - سورة القلم (٣١-١٧)

جددوا العهد بالشرف

حينما تلقى في هذا الزمان رجلا شريفا نزيها يحب الحق ويبغض الباطل فكأنك وجدت يتيمة الدهر أو لاقيت نبيا من الأنبياء أو رأيت أسطورة تشبه أساطير الخيال.!

وحينما تقرأ في التاريخ أنه كان في مصر من هذه العينة ومن هؤلاء الأحرار تتعجب كثيرا كيف أخرجت هذه الطينة أمثال هؤلاء الأماجد، بينما اليوم لا تخرج إلا الجشعين الطامعين المفسدين الذين يعيشون على الزيف والزور، ويغمطون الحق ويزكون الباطل، ويقبلون الرشى والمحسوبية والاختلاس ونهب الحقوق.

نعم إنها نفس الأرض التي أخرجت هؤلاء هي ذاتها من أخرجت نقيضهم الذي ملأ دنيانا اليوم حتى لم يعد للشرفاء بيننا مكان.

الصحف كل يوم تكشف لنا عن قضية فساد، من مسؤول لا يعرف الله ولا يراعي ضميره حينما استغل منصبه وسرق أو زور أو اختلس أو ارتشى.!

وهذا هو المعلوم المكشوف، أما عن المستور فالله أعلم بحجمه وقدره وعدده.!!

لا أعرف لماذا نفصل بين الأشخاص وتربيتهم وبين المؤسسة التي ينتسبون لها، فليس معنى أنني أنتسب للقضاء أو الأوقاف أو الازهر أو الجيش أني طاهر راقي معصوم فوق المساءلة وفوق الشبهات، فهذه المؤسسات لا تربي أصحابها ولا تعصمهم من الزلل والخيانة، وإنما الذي يناط بذلك هي تربية الانسان ومعدنه ودينه، فإذا لم يتوفر له نصيب من الدين والتقوى والضمير فهو شيطان حتى ولو كان في الصفوف الأولى من الجهاد والصلاة.

وإنني أعتبر أن أي محاولة للإيحاء وادعاء العصمة لمن ينسبون لمثل هذه المؤسسات الكبرى، هرف وتضليل ووهم وخرافة وضحك على العقول.. فالإنسان الفاسد يستطيع أن يعمل بفساده في أي مكان كان لا يرده عنه شيء إلا أن يكون صاحب دين يخشى الله.

فكم سمعنا عن قضاة تم شراءهم، وكم رأينا ضباطا جندهم العدو جواسيسا على الوطن، وكم سمعنا شيوخ دين أزهريين أحلوا الحرام وحرموا الحلال، مما يؤكد لنا أن أخلاق الرجال هي سيدة الموقف.!

منذ أيام كنت أقرأ عن الاديب والرحالة والمؤلف والبحاثة محمود بك رشاد رئيس محكة مصر الأسبق، وأخو شيخ العروبة أحمد زكي باشا، وكان رشاد قاضيا مرموقا نزيها شريفًا، قدر له أن يكون القاضي الحاكم في قضية المناضل الصحفي عبد العزيز جاويش الذي كان قلمه سيقا مسلطا على الخديوي والاحتلال وكان الجميع يرغب

الخلاص منه وينتظرون حكم القاضي الذي كان صدمة مدوية حينما رفض أن يخضع لأي ضغوط من الحكومة والاحتلال فحكم على جاويش بالبراءة.

وأعلن استقالته بعد هذه القضية حينما مارست الحكومة ضغوطا عليه لتجبره على غير رغبته. وهنا خشيت الجهات المسؤولة أن تكشف الاستقالة موقفها فأسرع سعد باشا يترجاه أن يرجع عن قراره ولكن محمود رشاد ألح في الرفض.

وأرادت الحكومة أن تغريه حتى تلين صلابته فأنعمت عليه بالباشوية، ولكن الرجل الشريف رفضها واعتذر عن قبولها، بل تجاوز اعتذاره عنها إلى التهديد بأنه إذا أصرت الحكومة على الانعام عليه فإنه يغادر البلاد فورا.

وكانت للرجل الشهم نظرته وفلسفته في الحياة حينما كتب إلى داود بركات رئيس تحرير الاهرام كتابا يقول فيه: كيف أقيد نفسي بهذه الرتبة، وأتنازل عن حريتي، فلا أتمكن من ركوب الترام في الهواء الطلق بين الناس وأضطر إلى ركوب الدرجة الأولى التي تضيق الصدر؟!

إن الباشوية ستحرمني أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك.

هذا واحد من هؤلاء الشرفاء النزهاء الذين تزين بهم تاريخ القضاء المصري بل تزين بهم تاريخ مصر كله.. ترانا لو بعثنا سيرة

هؤلاء بأقلامنا من جديد، أيكون ذلك تجديدا لعهدنا مع الشرف والنزاهة؟ أم أننا لن نجني من حكاياتنا عنهم إلا مصمصة الشفاه والتعجب من أخبارهم؟

المظلوم الذي أنصفه عدوه

هل تتخيل أن يكون مثل اللورد كرومر ممثل الاحتلال الانجليزي في مصر، على شيء من النبل والانصاف وإقرار الحق؟! نعم.. شيء غريب أن يكون مثل هذا المغتصب محب للنزاهة منصف للمظلوم، وهو في ذات الوقت من أبشع الناس ظلما وعدوانا على المصريين، ولعلها من جملة التناقضات التي تحيرنا بها الحياة فيما تعرضه من أحوال الشخوص والمواقف.

في أواخر سنة ١٩٠٥م فُصِلَ الشيخ محمد بخيت المطيعي من عمله كعضو أول في محكمة مصر الشرعية العليا في الحكومة، وذلك لأنه أصدر حكما في قضيةٍ تتعلّق بمحاسبة نظّار الأوقاف، وبعضُهم يمت إلى ذوي الأمر بأوثق الصلات، ولكنّ وزارة الحقانية أبطأت في تنفيذ الحكم، فكتب الشيخُ إلى بطرس غالي ناظر الحقانية يُعْلِمُه أنَّ السلطة التنفيذية إذا لم تقم بتنفيذ الحكم، فإنّه لن يصدر حكما ما فيما

سيعرض عليه من القضايا، وسيدعو زملاءَه إلى التوقف حتى يتمَّ التنفيذُ الفوري، وإزاءَ هذا الإصرار على محاسبة نظار الأوقاف ايّاً كان مركزهم، لم تجد الحكومةُ بدّاً من إقالته، مختلقةً عِللاً لا أصل لها! وظلَّ خارج الوظيفة مع كفاءته، ولزم بيته من عام ١٩٠٥-١٩٠٧م.

وفي ظل هذا الفراغ الذي قد يصاحبه بعض الاحتياج لرجل لا وظيفة له ولا راتب يعوله، جاء إليه مدير شركة أجنبية كبيرة يستعين به لدى القاضي العثماني يحيى افندي، لإجازة استبدال أعيان وقف للشركة، ولجهة الوقفِ فيها مصلحةٌ، على أن تعطيه الشركةُ نظير تعبه في هذه الشفاعة سهوما من سهومها تساوى (١٥٠) ألف جنيه مصري، فقال لمدير الشركة: هل كنت تعطيني شيئاً من ذلك الذي تعرضه لو لم تكن بيني وبين قاضي مصر صلة؟ فقال: لا، قال: هذه رشوة لا اقبلُها، وطال الحوار بين الشيخ ومدير الشركة على غير طائل.

وقد سمع اللورد كرومر هذه الحادثة من فم مدير الشركة، فأيقن انَّ الأقوال التي لُفِّقَتْ له عن سبب إقالة الشيخ داحضة، وانّه حين سأل عن سبب عزله، اختُرِعت له أسبابٌ غير صحيحة.. ومن ثَمَّ طلب إلى ولاة الأمور إعادة هذا القاضي، فعيّن رئيسًا لمحكمة الإسكندرية، ثم تدرجت به المواقع ليصير فيما بعد مفتيا للديار المصرية.

يمكن لبعض القراء أن يعلق ساخطا على الرجل الذي قبل وساطة المحتل، لكن الذي لا يمكن تجاهله هو تلك المبادرة من رأس الاحتلال لإنصاف رجل مظلوم حينما تبادر إلى سمعه شيء من أخلاقه وسموه في الحق، ولعله استنباط لا يروق لكثيرين لا يبصرون غير معالم السخط على العدو، ولكن المرء الذي يعشق الانصاف لا يسعه إلا الإشادة به مهما كان وحيثما كان وأين ما كان.

يا لها من أم

دائما ما تأسرني القراءة في هذا السفر العظيم (فقه السيرة) الذي كتب في روضة من رياض الجنة، لقد خطه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله سطوره في الروضة الشريفة وهو بالمدينة المنورة، وقد كتب لهذا السفر قبولا عظيما في الأرض، ونال استحسان جماهير الأمة في الشرق والغرب.

وحينما كنت أهيم مع الشيخ وهو يتناول بالتحليل تفاصيل غزوة مؤتة، وذكر انسحاب خالد بالجيش، ومقابلة الصبية الصغار في المدينة له وفرسانه وهم يعيرونه بقولهم: يافرار، وقف الرسول صلى الله عليه وسلم ليقول لهم: بل هم الكرار ان شاء الله.

ودعنا من مؤته والانسحاب وتبشير النبي بالعودة والرجوع، ولنركز مع الشيخ الغزالي، الذي صوب أشعة بصيرته على الصبية الصغار، ليستلهم معنى خطيرا، لا يسعك أمامه إلا أن تتعجب لقوة هذه العقلية، وكيف استطاعت أن تستلهم هذا الفهم وذلك المفاد.؟!

يقول الشيخ مستلهما: (إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فراراً يُقابل بِحَثْوِ التراب. أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق!؟ أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟ من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان

الآباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟ إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرفَ هذه الدروس..)

ولعلي ممن يحبون الحديث عن الأم ودورها التربوي في صناعة الاجيال، والذي لم أتردد حيال ما قرأت أن أقول مندهشا على هذا الاستنباط المذهل: كيف فهم الشيخ هذا الفهم؟ كيف وقف على هذا المعنى؟ لا شك أنها فتوح الله على الراحل الكريم.

كنت أتحدث مؤخرًا عن مرض الصدفية وتأثيره على الإنسان، فذكرت إحدى الأخوات اللاتي أكن لها كل معزة وتقدير أنها تعرفه، ولما سألتها كيف تعرفينه، قالت لي: حينما كنا صغارا كانت هناك فتاة تلعب معنا، وكانت على صغرها تلعب وهي ترتدي حجابا يغطي كل رأسها، وكان الأطفال يطلقون شعورهن، ويسخرن منها ويضايقنها، فلما علمت أمي أمرتني وإخوتي أن نقترب منها ونلاعبها، ولا نسمح لأحد أن يضايقها، وأعلمتنا أنها مريضة بمرض جلدي يسمى الصدفية، أصاب رأسها وجردها من شعرها، ويجب أن نساندها ونترفق بها ولا نكون كالأخرين، ممن يضايقونها.

كان الأخت الكريمة تتحدث عم الموقف والمرض، وانا أفكر وأتأمل، وكانت تظن الأخت أنني أفكر في المرض أو خطورة أن تصاب به طفلة صغيرة، بينما أنا في اتجاه آخر، وفي منطقة أخرى مع هذه الأم، التي بدأت تبدو طلائع عظمتها على رواية ابنتها من حيث لا تشعر.

توقفت وقلت لها: ما أعظم أمك، فقالت مؤكدة: نعم لقد علمتنا الرحمة في هذا الموقف.. فقلت لها: إن أمكم لم تعلمكم الرحمة فقط، وإنما علمتكم المروءة والشهامة والنخوة وخبر الخواطر، فما أعظمها من أم.!

ولما جاء ذكر المروءة والشهامة، وظننت أنا أن الحديث قد انتهى، وأن الموقف كان عابرا نادرا مؤثرا، أوقفتني الأخت الكريمة لتزيدني بما ذكرتها به من نخوة الأم.

فقالت لي حينما كنا في الخليج، كان بيتنا يطل على بعض أسر الزنوج السود، وكان أغلب الناس لا ينسجمون معهم، ولا يرحبون بهم، ويبتعدون عنهم بحجة أن رائحتهم كريهة، لكن أمي كانت تستضيف أمهم، وتقترب منها، وتربت على كتفها، وتعاملها بحنان عظيم، وكان الفتية يسمون أبناءهم عبيدًا، وأذكر أن أخي تعرض لعقاب شديد حينما نعت ولدهم بالعبد، وعلمته أمي أنه إنسان حر كريم.

ثم تقول: منذ تفتحت عيناي على الحياة وصورة القدس معلقة على أحد جدران بيتنا، مهما تغير المكان وتغيرت الجدارن تعود تلك الصورة لتحتل أحد الجدارن من جديد، أذكر أن أول قصة كاملة لي كانت عن طفل فلسطيني ينتقم لمقتل أسرته كلها على يد اليهود، كنت في نهاية المرحلة الابتدائية وفازت القصة بالمرتبة الأولى على مستوى المدرسة، وكانت بعنوان الطفل الشهيد وكانت أمي قد ساعدتني

فكتبتها بشكل جميل وصنعت لها غلافا ملونا ومازالت موجودة حتى اليوم أحتفظ بها مع ذكرياتي القديمة ودفاتري.

وإني لأتساءل الآن وأقول: إن أمًا بهذا الخلق، وهذه الفضائل كيف وماذا لها أن تربي وتخرج إلى الدنيا؟

لا شك أن أبناءها سيكون أرقى الناس، وأروع البشر، وأسمى النفوس.

دعارة باسم الوطن

قرأنا كيف كانت بعض الأجهزة المخابراتية، تدفع بعض الفتيات والفنانات لعمل علاقة محرمة بعض الشخصيات السياسية وتقوم بتسجيل هذه اللقاءات الحميمية، لتستخدمها فيما بعد في الضغط السياسي وسيادة القرار.

وخرجت السينما بفيلم يجسد تلك المأساة، بطولة نبيلة عبيد وفاروق الفيشاوي، والتي كانت تقول له: أنتم فهمتونا إننا بنخدم البلد.

نعم نقوم بعمل وطني

طالعنا مؤخرا هذا النبأ فاقرأ معي.

أوكرانيات يشجعن جنود الخطوط الأمامية بصور خليعة لرفع معنوياتهم!

تقوم مجموعة من النساء الأوكرانيات منذ فترة، بإرسال صورهن عاريات إلى جنود الخطوط الأمامية في كييف لتحفيزهم ورفع معنوياتهم أثناء القتال.

وأنشأت عالمة النفس الأوكرانية، آنا ريبارينكو (٣٩ عاما)، قناة على موقع التواصل الاجتماعي "تلغرام" خاصة بالنساء لدعم أزواجهن وأبنائهن الجنود الأوكرانيين المشاركين في الحرب.

وبدأت قصة القناة التي تحمل تسمية " القطط"، حين مازحها صديقها الجندي قائلا: " لماذا لا تدعم الفتيات الجنود بإرسال صورهن العارية، هذا سيشجعهم حقا".

ومن هنا جاءت الفكرة، واليوم تضم القناة أكثر من ٤٠٠٠ مشترك، مع ما يصل إلى ١٠٠ صورة ومقاطع فيديو مثيرة يتم تحميلها كل يوم، و"القطط" هو لقب للجنود.

وترى آنا أن ما تفعله يعيد "الحياة الجنسية والحب" إلى أمة كانت تعاني من الجوع منذ ٦ أشهر.

وترحب آنا بالصور من جميع الأشكال والأحجام، لكنها لا تحبذ المواد الإباحية. وتقول الشابة الأوكرانية: إن بعض المساهمات عبارة عن صور لفتيات عاريات، والبعض الآخر أكثر فنية ويتضمن الزهور وعجن العجين.

وعندي أن مثل هذا العمل يزكي نيران الشهوات ويؤجج أوار الغرائز، وجنود بهذا الحال وعلى هذه الأخلاق، لا يتورعون أبدًا عن الفجور بالنساء واغتصابهن لو قدر لهم الغلب على عدوهم.

فهم في حرمان محموم، يريد أن يخرج طاقته المكبوتة والتي تكون أحيانا لون من العقاب لعدوه، كما فعل إخوانهم الفجرة في الصرب، بالشعب المسلم الأعزل المسكين.

لماذا أذكر هذا الكلام وما الذي يعنيني من التعليق على هذا النبأ، فهؤلاء القوم لهم أخلاقهم وثقافاتهم التي تختلف عنا وعن طبائعنا.!

إن الرابط وثيق الصلة بتاريخنا وأمجادنا ورجالنا.

فتاريخنا الذي يتهم اليوم بالوحشية والقسوة والسلب والنهب وسفك الدماء، هو في حقيقته تلك بالفتوح العظيمة السامية، والتي خرج المقاتلون فيها لإعلاء كلمة الله، ولم يسجل التاريخ حالة واحدة الاغتصاب وهتك أعراض النساء، وكيف يفعلون ذلك وهم حملة رسالة عظيمة؟ وكانت البلدان التي يتغلبون عليها يهرع أهلها خوفا وذعرًا، ظنًا منهم أن المسلمين كغيرهم من الجنود السفلة والهمج الرعاع، فإذا بهم يرون عبادًا زهادًا يغضون طرف أعينهم عن مجرد النظر.

وكانت السبايا حالة عامة في ذلك الزمان، وإذا امتلك أحدهم امرأة صارت ملك يمينه وكأنها زوجته لها حرمتها ومكانتها التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن العلمانيون الآثمون يعامون دوما عن هذه المثالية العالية والقيم الأخلاقية التي تحلت بها الفتوح الإسلامية، وراحوا اليوم ينعقون لينسبوا إيها الغدر والسلب والوحشية وانهب.

قفوا مكانكم، لقد كان فتوح العدالة والإنسانية، فتوح سارت بركبانها لمحو الشر من الأرض، ومن قال غير هذا فليثبته إن استطاع.

ميوعة

كتبت باحثة الماجستير تطري زوجها أمام الجمهور في تقديم رسالتها، وكأنه درة الزمان وجوهرة المكان الذي لم تأت البشرية بمثله، وليت الأمر اكتفى عند هذا، بل راحت لتستأجر فني مونتاج لعمل فيديو يضم لقطات الحب والهيام بينها وبين زوجها في احتفالية المناقشة، مع قبلة على الجبين، والتفاف جسدها معلق بيده.

علمت أن الزوجين اقترنا حديثا ومازالا تحت تأثير شهور العسل، ولا نعلم حالتهما بعد مرور عام او عامين، وربما نلتمس لهما عذرا في حبهما القاهر لحداثة الارتباط، فبعض الناس لا يقتنعون أن الحب بينهما قد يستوفى تمامه وأركانه إلا بتمثيله وتجسيده أمام الناس.

لكن الحالة رغم إعذارنا لطرفيها لحداثتهما وأنها صادفت تحقيق نجاح أبهج قلبيهما، إلا أنها ذكرتني بمواقف سابقة أعلنت معها أنني لم أطق يوما من لا يحلو لهم الحب والغرام إلا أمام الناس وبمحضر شهودهم، ولا أعلم ما هي المتعة في أن يراني الناس وأنا أتغزل في زوجتي وأسمعها ما لذ وطاب من كلمات العشق؟ وكم تساءلت في مواقف مثل هذه: يمكن للزوج أن يكون مريضا نفسيا يستهويه فعل ذلك، لكن أين حياء المرأة وحشمتها العاطفية أمام الناس؟

ألا يخاف هؤلاء حتى من الحسد والعين ان تفسد ودهما وانسجامهما؟

كان الأولى بهم أن يدخروا مشاعرهم لأنفسهم، ولا يعلنوها بهذا الإسهال المريع، وقد كان لي أصدقاء من هذا النوع، ويا ل متعة الدنيا لو هاتفته زوجته ونحن معه، حتى يرد عليها أمامنا بمعسول الكلمات والعبارات – المائعة – في حالة من السماجة و– المياصة – المستفزة، والهيام اللزج، وهو يقول لها: أيوه حبي، معاك روحي قلبي، بسمعك يا عمري.

والحق أنني لم أستطع أن أتمالك نفسي أمام هذه التبذل، فقلت له: ما هذا يا صديقي؟ ليس هناك داع لإعلان هذه الكلمات الحميمية أمام الناس، لتكن بينك وبين زوجتك في بيتكما، كن محتشما أكثر من هذا! فإذا به يرد على بقوله: يا أخي إن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينادي زوجته بقوله: يا عائش، قلت له نعم ولكن رسول الله كان يناديها بهذا وهو رجل صلب صاحب دين واتزان ورجولة، ولم تكن فيه هذه المسحة من الميوعة، ثم يا أخي راجع الحديث لتعلم أن راويته هي السيدة عائشة نفسها وأنها قالت إنه كان يناديها بهذا، ولم يكن للأمة علم بهذه المناداة إلا بإخبار عائشة وهو من باب العلم بحال رسول الله وأخلاقه، ثم راجع البخاري نفسه لتعرف في أي معرض قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك.. ثم ما العلاقة بين أن يدلل الزوج زوجته باسم يستحسنه ويقوله في بيت يجمعهما، وبين ميوعة ممجوجة مسفة لا أجد لها اسما إلا أنها – مرأعة –.

وبعض آخر لا يحلو له إلا أن يستعرض مع زوجته حبهما وغرامهما على الفيس بوك، بألفاظ حميمية وعواطف ملتهبة حتى ليخيل

إليك أنهما بعد قليل سيعرضون مشهد جماعهما في بث مباشر على الفيس.

ما يحدث ربما يفتعله بعض الازواج من أجل ركوب الترند الملعون الذي قلب كثيرا من الموازين، وللأسف نجد كثيرا من الطيبين يستحسنون هذا التفلت ويستعذبون الكلمات، وخاصة من يحرمون كلمات الحب من زوجاتهم، لقد وجدوا في المقطع والكلمات أمنيتهم ورسائلهم التي يريدون إرسالها لزوجاتهم علها تذيب جفاءهن.

ومما يريع أن المشهد يتم عرضه في محاريب العلم، ولو أنه وقع في مكان آخر لكان من الجائز قبوله وتحمله، أما أن يكون في محراب العلم وقاعة المناقشة، وأيضا في الأزهر الشريف، فقد تخطى الأمر حدوده.

وفي موقف مشابه يقول أستاذنا الدكتور محمد صلاح عبده: "أذكر في مناقشة عندنا بكليتنا أن الباحثة قالت عن زوجها في البيان واصفة له: "بأنه الذي لم يجد الزمان بمثله" فقاطعتها على الفور قائلا لها: " ناقص نقول صلى الله عليه وسلم"؛ وقد عاتبني بعض الزملاء من كبار السن قائلا: "لقد أحرجتها" ولم أقتنع بعتابه.

وجرت عادتي أن أراجع بيان من أشرف على رسائلهم من الباحثين والباحثات تفاديا لهذا السقوط المقيت.. إن انحدار الأذواق تسلل إلى خير الأماكن وأفضل المحاريب التي يجب أن تكون بمنأى عن

هذه العواطف المتكلفة؛ والأدهى والأمر فرحة قطاعات من الناس بهذه "المسخرة"! "حاجة تقرف!"

وهوه فعلا عمل مقرف، وأنا أؤيد فضيلته تماما في استنكار هذا الفعل ونعته بالمسخرة، وأضيف عليه أن الزوج الذي يسمح به فاقد الاتزان، والمرأة التي تحب هذا تخدش الحياء، وتخرج عن سمت الوقار، لا يمكن لأناس مهذبين أسوياء فعل هذا أو الاقتراب من بصيصه.

عقدة الأرياف

مع انتشار الفقر واستياء الأوضاع المعيشية، يكثر المحتاجون، ويلح العوز، وتكون هناك ضرورة إنسانية لانتشار العمل الخيري وتوسعه، لكن هناك بعض الإشكالات التي تكتنف هذا العمل، لا من حيث إمكاناته وأدائه وإنجازاته وإدارته، وإنما من حيث مقاصده وغاياته العليا، خاصة تلك التي ترتبط بالله تعالى، ونيل الأجر والثواب منه سبحانه.

فالله تعالى يعنيه في المقام الأول، أن تكون النية خالصة لوجهه الكريم، حتى ولو كان العمل ضخما كبيرا لم يترك مسكينا أو فقيرا إلا وشمله ببره وعطفه وإحسانه، لا يتقبله الله تعالى مادامت النية غير خالصة لذاته العلية.

وفي القرى والأرياف تحديدا تجد هذه المعضلة، حيث لا تجدها في المدن إلا منعدمة لا أثر لها، فالحاجة للفخر والتباهي في القرى والأرياف، ضرورة حياتية وجزء أصيل من تكوين الشخصية الريفية، حتى مع انتشار التعليم والتنوير واتساع مدى ونطاق التطور، لا تزال تلك الرغبة وهذا الداء أصيلا في تكوين المجتمع الريفي، فالشعور بالفخر والتباهي لا ينفك عن العقول في غدوها ورواحها وعملها وجهدها وتفكيرها وغاياتها، وقد يجوع المرء ويستدين ويتعرى ولا يجد قوت يومه، ولكنه لا يفرط أبدا فيما يسبب له التعالي وحب الجاه

والفخر على الناس، وهو لون مقيت من ألوان الكبر والعجب، نجانا الله منه.

تعلمت قديما حديثا قدسيا درسناه في الأزهر يقول الله تعالى فيه: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ تركتُهُ وشِركَهُ،.. رواه مسلم وصححه الألباني

فإذا أقمت مسجدًا أو سبيلا أو مستشفى أو جمعية خيرية، أو أي وجها من وجوه الخير، ووضعت عليه اسمك أو اسم قبيلتك وأهلك وعائلتك، تبتغي الوجاهة والفخر والتباهي والتعالي، إلا فسدت الغاية، وأحبط الهدف، وفسد الأجر، حتى لو كنت في نفس الوقت ترجو خير الناس، وتعمل لانتشالهم من أوحال الفقر والمرض، وذلك كما قلت لك: لأن الله تعالى لا يقبل الشركة مع أحد، وغايته لا تقبل الشراكة مع غاية أخرى.

وقد درسنا كذلك في مختصر الزبيدي في شرح أحاديث البخاري قولا لا أنساه أبدا ما حييت، تعلمت منه شرطية أن يكون العمل خالصا لوجه الله، إذا تعلق بشيء من سبل الخير والدين حتى يقبل ويثيبك الله تعالى عليه، فقد قال الامام ابن الجوزي صاحب تلبيس إبليس: (أيما رجل كتب اسمه على مسجد بناه، إلا كان بعيدا عن الإخلاص.)

نعم كان بعيدا عن الإخلاص، وعليه فليهرع الناس وليتعلموا فن التجرد، ومعنى الورع، ودواعي التجرد، فما عند الله لا ينال إلا

بالإخلاص له، والحذر من إشراك أي وجهة أخرى في عمل من المفترض أنه ينسب له سبحانه.

ومن أول من يقضى عليهم يوم القيامة أصناف عدة، منهم:

رجُلٌ وسَّع اللهُ عليه وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كلِّه. فأتَى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها. قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: ما تَرَكتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقتُ فيها لكَ. قال: كذَبتَ. ولكنَّكَ فعَلتَ لِيُقَالَ هو جَوَادٌ. فقد قيل. ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه. ثم أُلقِي في النارِ.

أعجبتني مقولة ذكرها مفكر جالسته حيث قال:

حينما يأتي الفقير إلى جمعية لا تنتسب لشخص أو عائلة، يظن وقتها أن له حق في الخير، وليس في جمعية فلان أو علان.. ومشكلة الاخلاص.. تتوزع من الفخر للشخص إلى عدة أشخاص كالعائلة والأسرة.!

على رسلك أيها القارئ، واحذر أن يتجه ظنك يمينا أو يسارا، فيصور لك عقلك أنني أقصد شخصا بعينه أو عائلة بعينها، أبدا فأنا هنا في مقام المُعلم، والمرشد والناصح الأمين، الذي يصحح مسار العقل والعمل والغاية، ولا يبتغي نقدا أو غمزا أو لمزا لأحد، فما هذه أخلاق من يدل على الله، ويدعو لسبيله، ومن ظن ذلك فقد حملني فوق طاقتي، وظلمني كثيرا، فكل أملي أن نتحرى الإخلاص قدر الإمكان، حتى لا تُحبط هذه الأعمال الجميلة العظيمة الهادفة، التي تعبر عن إنسانية أصحابها.

فلتحيا الكاميرات

جمعني الحديث في البارحة مع بعض الأصدقاء المحترمين، ودار الحديث الطريف من جهة، والمؤلم من جهة أخرى، حول أخلاق الناس التي تغيرت تغيرا كبيرا، وكيف صاروا لا يراعون أدبا ولا قيما ولا فضيلة، ولا أي ملمح من ملامح الأدب والاحترام والذوق في معاملة الجيران، والحرص على مصالح الناس وتجنب مايؤذيهم، بل تطرق الحديث حول المعاملات، وكيف يلقى الناس من بعضهم، معاملة لا إحسان فيها ولا ضمير.

وفي دورة الحديث وسريان مستجداته، خلص الأخوة إلى معنى خطير، يستدعي المرء حياله أن ينبهر ويتعجب، فقد قيض الله لهذا الزمان، من يلزم الناس بالأخلاق والقيم والأدب، حينما غاب عنهم الضمير والاحترام والقيم، ويقلل من جرائمهم وأفعالهم السيئة التي يفعلونها في حق غيرهم حينما يخيم الليل، أو يخلو الشارع من المارة والسكان، لقد كانت هناك عين خشيها الناس، حينما علموا أنها تطلع على تصرفاتهم وسوئهم، وتردهم عن كثير من شرهم، في الوقت الذي لا يعبأون بعين الله، التي يعلمون أنها ساهرة لا تنام ولا تغفل عما يقدمون من أذى وإفساد، لكنهم لا يضرهم أن الله مطلع عليهم، ويفزعهم أن يطلع عليهم البشر.

حكى لي الصديقان، كيف كشفت الكاميرات التي علقوها أمام بيوتهم ومحلاتهم، عن مآس وجرائم، وإيذاء رخيص، نالوه من الجيران وأهل الحي، وكان أحدهم حينما يصارح صاحب الجريمة، أو صاحبة الأذى، تنكر وتكذب، فإذا ما أطلعوها على صورتها الحية، وهي ترتكب جريمتها.. حتى تنزوي خجلا، لجريمتها وكذبها، بل تكاد من خجلها أن تدعي أنها تمشي وهي نائمة، حتى تتملص من حقارة ما جنته يداها.

فقد الناس كثيرا من الأخلاق، وما عادوا يحترمون الجيرة والأهلية والعشرة القديمة، وأذكر حالة خاصة في الشارع المجاور لبيتنا، فقد كنت سيارة القمامة، تمر من أمامنا لتجمع قمامة البيوت والمنازل، وكان سكان هذا الشارع، يخرجون بمخلفاتهم وقمامتهم وفضلاتهم وبلاويهم، ويلقونها أمام بيتنا، مما يسبب لنا أذى لا حد له، حتى تحول المكان أمام البيت، محضنا للذباب والبعوض وموطنا للحشرات الضارة، ونواة للنتن والروائح الكريهة، والحق أنني كنت أتعجب كيف تحول الناس وساروا بهذا الشر، يمعنون في أذية جيرانهم أو أهلهم، من قضوا معهم عشرة طويلة بهذا الشكل وبهذه الصورة، وكنا نضطر أحيانا، إلى إثارة الشجار والعراك، مع كل بيت من بيوت أهلنا وجيراننا لنمنعهم ونشعرهم باستيائنا، ولكن للأسف لا حياة لمن تنادي، ولكننا للأسف كنا كهذا الإنسان الذي يلعب لعبة القطة العمياء مع أصدقائه يبحث عمن يلمسه، بينما عيناه مغمضتين لا يهتدي لشيء، ظللنا على الوضع الأسيف مدة من الزمن، حتى أنني وإخوتي ولما ضاق بنا الأمر،

فكرنا أن نجلس أمام البيت بالتناوب ليلا نحرسه، أو نستأجر بوابا يقوم الحارس، ليحمينا من ضرر الشارع، ويمنع من يفعل هذا الجرم ويؤذينا بمخلفاته ونفاياته مهملاته وفضلاته، ظللنا في هذا العناء، وهذا الضيق من تصرفات شارعنا الذى يفرز البلاء بلا توقف، حتى أنعم الله علينا بالأخ رضا عون والذي قام بتركيب الكاميرات في محله المقابل لبيتنا، والتي أظهرت الشارع من كل جهاته، وكانت هذه الكاميرات، هي الكاشفة والمظهرة لكل من حاول أن يمارس هواية الإيذاء، ويرمينا بالنتن والقذر، بل يوشك أن يرمينا بقذاه بدلا من صرفه في دورة المياه.

لكنني لا أخفيكم أنني رغم فرحتي بتركيب هذه الكاميرات، إلا أنني كنت في قمة حزني حينما رأيت الناس يخشون عيون الكاميرات، ولا يخشون عين الله التي تطلع على كل شيء ولا تنام.

كيف هذا؟

انظر لهذا الموقف الذي حكاه الدكتور مصطفى الفقي عن العالم والمفكر الجليل الدكتور عبد الجليل شلبي، حينما كان مديرا للمركز الإسلامي في لندن في السبعينات حيث قال: "حكى لي د. عبد الجليل ذات يوم قصة لا أنساها..

فقد قال الشيخ الوقور إنه كان في مكتبة المتحف البريطاني، منذ يومين، ورأى الفتاة المسئولة عن القسم الذي يقرأ فيه ويصور الوثائق منه، وهي تبكي، فسألها عن السبب، وعرف منها أن مخطوطاً عربيًا مهما يبدو مفقودًا، وأنها قامت بالتفتيش عنه لعدة ساعات دون جدوى؛ ربما لأنها لا تجيد العربية، وأظن أن ذلك الكتاب، كان هو - إن لم تخني الذاكرة - (الفتوحات المكية لابن عربي)، ومضى د. عبد الجليل شلبي يروي لي أنه هدأ من روع الفتاة، ودعا الله أن تجد المخطوط المفقود، ثم سألها: متى تنتهين من عملك؟ فقالت له: في الخامسة مساءً، فقال لها: سوف أحضر هنا، ونبقى معا لكي أبحث معك بين الكتب؛ لعلي أجد المخطوط المفقود، فشكرته ووافقت على العرض الطيب، الذي يمكن أن ينقذها من عقوبة الفصل من العمل.. وبالفعل جاء الشيخ في الخامسة مساءً، وشمر عن ساعديه، وبدأ يفتش باحثا عن الكتاب في أرفف القسم الكبير، في المكتبة العريقة والفتاة ترقبه في قلق.. وقد ظل كذلك لأكثر من ساعتين، ثم صاح قائلا لها: لقد وجدته، فانخرطت

الفتاة في البكاء مرة أخرى بدموع الفرح، وأكبرت للشيخ المصري شهامته ومعونته لمن يحتاجه في الظروف الصعبة.

وعلمت منه بعد ذلك أن الفتاة ظلت على تواصل دائم به، وكانت تناديه بكلمة يا أبي، وبدأت تقرأ أكثر عن الإسلام ذلك الدين، الذي يجعل من أتباعه الحقيقيين من هم مثل هذا الشيخ الأزهري، ولم يمض إلا عامين، وعلمنا أن الفتاة أعلنت إسلامها، وبدأت التبحر في دراسة الشريعة الإسلامية والقراءة في أصول الدين.. كما ظلت تحكي لكل من تعرف قصة النجدة الإلهية، التي جاءتها من خلال ذلك الشيخ المسلم."

ما أجمل هذا، فما أكثر العلماء الذين قدموا للإسلام كتبا وأسفارا وعلوما، ولكن قليل منهم من أسلم واهتدى على يديه مهتد جديد، آمن بروعة الإسلام من أخلاقهم.

إنها الشهامة التي ملك بها هذا المفكر الجليل ثوابا هو خير من الدنيا وما فيها، مصداقا للحديث الشريف: (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. أو خير لك من الدنيا وما فيها) . متفق عليه عن علي رضي الله عنه.

ظلام الأحقاد

عجبًا كيف يكون الخير مجلبة للشر؟! عرفت أهل بيت كانوا لا يتأخرون عن العطاء والإحسان، يبسطون أياديهم للفقراء والمحتاجين، ويغدقون بالمال على ذوي القربى، لا يتأخرون عن سائل، ولا يتغافلون عن محتاج، ومع الوقت بدأت تدب في حياتهم كثير من المشكلات، فلما بحثوا في الأمر وطلبوا حلا من العارفين، أعلموهم أن بعض أقاربهم ممن يحسنون إليهم يحسدهم ويحقد عليهم، ويستكثر النعمة التي هم فيها، بل دفع الحقد أحدهم أن يُعد لهم أعمالا من الدجالين والسحرة تضرهم وتقلب موازين حياتهم، وصار الناس يضربون كفًا على كف ويتساءلون: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ كيف تكون الإساءة جزاء الإحسان؟!

انظر لهذا المثال الصارخ لعاقبة الخير وأهله، فبعض أهل البر والعطاء، تجد هناك من يحقد عليهم ويتمنى زوال نعمتهم، لأن الله تعالى جعلهم على هذه الرتبة ومنحهم هذه الميزة، وفضلهم بها عليهم، لأنها جلبت لهم محبة الناس، وإشادة الخلق، وأحلتهم مكانا عليا في قلوبهم وضمائرهم.

وأنا أتعجب من منطق الحاقدين، ويا له منطق موغل في الغرابة، ففي قريتنا رجل محسن، ما ترك بابًا من أبواب الخير إلا فعله وأبلى فيه البلاء الحسن، وكان الناس يحمدون فعله، ويدعون له

ويباركون نيته وإحسانه، لكن فريقا من الناس حقد عليه حقدا عظيما، وأخذوا يوهنون من فعله، ويقللون من جهده، ويخترعون من الأقوال والتأويلات ما يحاولون به إفساد إحسانه، ويومًا ما حاولت أن أناقش بعضهم ممن لا يخفون ضغينتهم له، أريد التعرف على السبب الذي يدفعهم للنقمة على رجل ما كانت جريرته إلا أنه مد يده بالخير والبر للناس، فكان الرد مدهشًا محيرًا إذ قيل لي: لقد أفسد بفعله كثيرًا من الفقراء والمحتاجين، الذين كانوا يخرجون للعمل والكفاح لكنهم اليوم تكاسلوا واستغنوا ولزموا بيوتهم وفسد حالهم معنا، فما عدنا نجد منهم محتاجا يقوم لنا بعمل نريده، أو نستأجره في مهمة، قلت: سبحان الله أيرضيكم أن يظل الناس في احتياج لكم يتذللون السؤال ويطلبون المعونة؟!

كان ابن بقية البغدادي وزير من وزراء العباسيين، يُطعم الفقراء، ويكسو العراة، ويعطي المساكين، ويقول للعلماء: من يدرس منكم في المسجد فكفالته ونفقته عليّ، فأصبح له صيت في دولة عضد الدولة، حتى طغى اسمه على اسم السلطان، فغضب عضد الدولة منه، فدبر له مكيدة وقبض عليه، وقتله بين أرجل الفيلة، ولم يكتف بذلك بل صلبه، وظل مصلوبًا إلى أن مات عضد الدولة.. فوقف أبو الحسن الأنباري يبكي جثمانه المصلوب، متحسرا عليه، لما له عليه من نعماء وأيد بيضاء، فكتب قصيدته على عدد من النسخ ألقاها في الطرق، قال فيها:

علوَّ في الحياة وفي الممات ❊ لحقٌّ أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا ❊ وفودُ نَداك أيام الصِّلات

كأنك قائم فيهم خطيبـــــًا ❊ وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاءً ❊ كمدِّهما اليهم بالهِبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ❊ يضم علاك من بعد الوفاة

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ❊ عن الأكفان ثوبَ السافيات

لعُظْمك في النفوس تبيت تُرعى❊ بحرّاس وحفّاظ ثِقات

وتوقَد حولك النيرانُ ليلا ❊ كذلك كنت أيام الحياة

ورغم هذه العاقبة المرة التي لحقت بابن بقية، فإن حاقده لم يتركه حتى بعد موته، ولم يرحمه من الحنق والحقد عليه، حيث قال لما بلغته قصيدة ابن الأنباري: والذي نفسي بيده لوددت أنني المصلوب والقصيدة قيلت فيَّ.. نعوذ بالله من ظلام الحقد.!

وزير من ألف ليلة وليلة

لا شك أن الوزير الحر الشريف في بلادنا إن وجد، فإنه يعتبر أسطورة نادرة ويتناقل الناس أنباءه كأنه أعجوبة الدهر، ونادرة الزمان، لأن أغلب الوزراء لا يسعى إلا لمصالحه الشخصية، ومآربه الذاتية، ويحاول بكل الطرق أن يكنز الأموال، ويعقد الصفقات، وربما يختلس ويسرق، حتى يجد كما يقولون: خميرة يستند عليها بعد خروجه من الوزارة إلى التقاعد.. وهذه النوعية التي بُلينا بها، ترى الواحد منهم لا يهتم لحال الناس، ولا يجتهد في إنفاذ مصالحهم، ولا يرعوي لحال الضعفاء والمساكين الذي تأزمت حياتهم بسبب وزارته، وبسبب غفلته، وعدم ضبطه لعمله ورجاله، والقوانين التي تخرج من مكتبه.

وصرنا نحن المصريين، نسمع عن الوزراء في الغرب الذين ينزلون إلى الشارع ويركبون الترام، ويراقبون أعمالهم بأنفسهم ويستمعون لنقد الناس لهم ولعملهم، ويسعى الواحد منهم لتنفيذ ما يلزم تجاه الناس بنفسه ويديه، وكأننا نسمع قصصًا من ألف ليلة وليلة، أو كأننا نقرأ عن سيرة عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز.!

ويااليت هناك تحريات نفسية فسيولوجية تجرى على الأشخاص الذين يتم اختيارهم لهذه المواقع، تكشف عن حجم ضمائرهم ومستوى نزاهتهم، ودرجة شرفهم، ومقدار تحملهم للمسؤولية، وقدرتهم على التفاني في العمل لتحقيق مصالح الناس ورعاية شؤون الأمة، تمامًا كما

تجرى التحريات الاجتماعية الأمنية التي تحدد انتماءاتهم الفكرية، واستقامة سيرتهم وسمعتهم العامة، لأن الوزير من هؤلاء قد تستقيم سمعته الظاهرة، ولكنها تخفي وراءها لصًا كبيرًا لا دين له ولا ضمير ولا نزاهة ولا شرف.! وللأسف بلينا نحن المصريين بهؤلاء النصابين المجرمين الذين سرقوا قوت الشعب، وسطوا على أمواله بلا رقيب او حسيب فلينتقم الله منهم، ولهذا.. كان الوزير الشريف لو وجد، فإنه يكون شيئا نادرا وأعجوبة مدهشة، لكنه سرعان ما ينتهي عمله، لأنه لا مقام له في منظومة تشع بالفساد.

لقد كانت هناك نماذج قديما وحديثا تقدر واجبها وتدرك مسؤوليتها.. فقبل الحرب العالمية لم يكن الوزراء يملكون سيارات كما هم اليوم يملكون خمسة أو عشرة أو عشرين، وكانت شركة الترام توزع على كل وزير اشتراكا مجانيًا في الدرجة الاولى، وكان من بين الوزراء الذين يركبون الترام الفريق ابراهيم فتحي باشا وزير الأوقاف، وذات يوم وهو يركب الترام توقف في محطة العتبة الخضراء.. وفوجئ الجمهور في الميدان المزدحم بوزير الأوقاف وهو يقفز من الترام، وينقض على شاب واقف في المحطة، ويمسك برباط رقبته وينهال عليه ضربًا وصفعًا وهو يصرخ بأعلى صوته: كيف تبصبص بأموال المسلمين يا كلب؟!

الرجل الذي آمن بالآخرين

كان هناك في مصر أولئك الذين يؤمنون بالمعارضة والرأي الآخر ونقد الذات، ويرون لهذا الإيمان دورًا كبيرًا في بناء الوعي، وارتقاء النفوس، وتطوير الأداء، ونجاح العمل.

كانت هذه الدعوة موجودة في مصر، وكان لها دعاة يبذلون في سبيل تأصيلها كثيرا من الجهود.. وكان هناك رائدها الذي جسد النموذج الأعظم والمثالي الذي سبق بفكره زمنه وعصره وأنداده.!

ففي الوقت الذي لمعت فيه عبقريات الفكر والأدب في مطالع القرن العشرين، وظهر أولئك النفر العظام الذين أنشأوا في مصر نهضة فكرية وعلمية وأدبية وسياسية، ظهر من بينهم هذا المفكر العملاق الذي آمن بالمعارضة والخلاف، ونقد الذات، وقبول الرأي الآخر، وإفساح الميدان لظهوره، والتعبير عنه، وتصوره وعد ذلك من أمثل الطرق التي يستقيم بها العمل السياسي والمشاركة الحزبية.

ظهر (محمد فريد وجدي) حينما أنشأ صحيفة الدستور عام (١٩٠٧) والتي كانت ثاني الصحف الناطقة باسم الحزب الوطني الذي أسسه الزعيم الكبير (مصطفى كامل).

كان (وجدي) محبًا للحزب الوطني مؤيدًا لآرائه معجبًا بزعيمه، الذي يراه لسان الشعب الصريح، ومن ثم.. صار (وجدي) من أعضاء الحزب الوطني، وأمام صحيفة اللواء الناطقة باسمه أراد

فريد أن ينشئ جريدة أخرى تسير على نفس مبادئ الحزب، لكنها في ذات الوقت تقوم بفتح باب المعارضة وترحب بالرأي الآخر، وتتيح له عرض وجهة نظره المغايرة التي تدفع الجميع وتسوقهم أن يقفوا متجردين من العصبية، متحيزين لمصالح الأمة وحدها، وقد كان هذا هو المنهج الذي تقوم عليه شخصية هذا الفذ العملاق وهو ما شهد به العقاد حينما قال: " كان من أرحب خلق الله صدرًا لحرية الرأي وحرية المناقشة"

كما ذكر العقاد كيف أنه عمل معه وهو شاب صغير لا ذكر له، وكان يكتب في تلك المرحلة، بآراء واعتراضات فكرية وسياسية تخالف آراء أستاذه، ورغم ذلك ينشر والأستاذ لا يعترض ولا يحذف شيئا مما يكتبه العقاد، بل كان يسمح له بأكبر من ذلك.! حينما أفسح له المجال أن يكتب بما يعارض آراء الحزب وينشر كذلك آراء شخوص من خصوم الحزب، كما فعل في نشره لحوار سعد زغلول والذي نفى من خلاله كل ما كان ينسبه إليه كتاب اللواء من تُهم.!

وهكذا لم ينشئ (وجدي) صحيفة الدستور، لتكون نسخة من اللواء، أو صوتا مكملا لها، وإنما أنشأها لتكون ذات رأي حر يجمع بين كل الأحزاب، تحاكم الآراء جميعا إلى العقل والمنطق والمبادئ التي لا خلاف فيها.

كان (فريد وجدي) يؤمن أن المعارضة الصادقة تخدم الحقيقة المنشودة، كما تنشئ شباب الحزب، وتجعل منهم رجالا يقدرون اختلاف وجهات النظر، ويرون ذلك شيئا طبيعيا لا نشاز فيه.. ولكن

هذا التوجه الراقي والنظرة السامية، لم تعجب كثيرين من رجال الحزب الذين رفضوا أن يكون بينهم من يعترض على قراراته، أو انتقاد آرائه وتوجهاته، فطالبوا جميعا بسقوط الدستور، ومقاطعته والامتناع عن شرائه وقراءته، وأرسلوا له مقالات الاستنكار وبرقيات الاحتجاج، ومع ذلك قبلها بروح عالية، وقام بنشرها والتعقيب عليها بما يوضح فكره وغايته التي لم يستطع هؤلاء أن يدركوها أو يفطنوا لعظمتها فقال محاطبا إياهم: " إن كوني من الحزب الوطني أعترف بزعامة مصطفى كامل باشا، لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أبين للشبيبة موقع الخطأ والصواب فيها على ما يقتضيه واجب الصحافة، هل تمنع الإنكليزي إنكليزيته من انتقاد خطبة لملكه، أو موقف لزعيم حزبه، وإذن ما فائدة التعاون والتناصح والمساعدة على تقويم الآراء وتعديل المنازع؟ وفي أي مذهب وفي أي قانون، يعد الانتقاد رذيلة أو تلونا أو بعدا عن الواجب؟"

هكذا كانت نظرة السياسي الحكيم، والفيلسوف الرشيد، والمفكر السديد، والعالم النحرير، بل هكذا كانت نظرة الوطني المخلص لأمته وبلاده ووطنه.

سؤال يحيرني

سؤال يحيرني ولم أقف له على جواب شافٍ، فهل يا ترى أجد الإجابة لديك أيها القارئ العزيز..؟! من قديم وأنا أتساءل كيف لهذه الأمم الغربية، أن تصل لما وصلت إليه من تكريم الإنسان واحترام آدميته، وتقرير حقوقه في مجتمعاتهم، ومع هذا يُهينون ذات الإنسان، ويهدرون آدميته في معاملاتهم مع الشعوب الأخرى؟!

أليس الإنسان هو ذات الإنسان، في قارات العالم وبلدانه، بشحمه ولحمه وعظمه وحسه ووجدانه؟!

هل يمكن بكل هذه البساطة أن يتجزأ التصور للبشر فنجد منهم من يستحق لقب إنسان، وغيرهم لا يستحقونه؟!

لا شك أنه انفصام في التصور لمعنى الإنسان.. وفي غمرة هذه الحيرة، وهذه المفاهيم الكارثية، لا يسعني إلا أن أقول: إن ديننا جعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يُفرق بين البشر أسودهم وأبيضهم، عربهم وعجمهم.. وهي القيمة التي يستحيل أن يؤمن بها الغرب أو يطبقها في حياته، لأنهم يرون أن إنسانهم هو الإنسان الذي يتمتع بكل حقوق الحياة والآدمية.. أما غيره فلا قيمة له، وغير محسوب على العنصر البشري.!

حتى القانون الدولي حينما وضعوا أسسه وأقروا بنوده، وضعوها لتكون حكراً عليهم وحدهم، ولا تجوز للأمم الأخرى، فلا يرون أن تُعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية، وفي هذا ينقل الدكتور (عبد الودود شلبي) في سفره القيم (أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية) نقلاً عن الدكتور (حافظ غانم قوله:

"منذ نشأ القانون الدُّوَلي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الأمم الإسلامية خارج نطاقات العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون ، وعلى هذا الأساس ،لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية ، فـ (جروسيس) أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية، و(جنتيلس) هاجم (فرانسوا الأول) ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام ١٥٣٥م ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين مدة حياة الملكين، ومع أنها أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية إلا أنها كانت مرفوضة"

والأدهى من ذلك أن تقوم لديهم منظمات لحقوق الحيوان، قد تُقيم الدنيا وتقعدها إن تعامل أحدهم بخشونة أو قسوة مع حيوان أعجم، بينما الآذان الصُم واللامبالاة المفرطة، تجاه ما يرون من مذابح تطال الإنسانية صباح مساء وعلى أيديهم.!

وفي صحيفة الشرق الأوسط هذا الخبر عن البرلمان الإسباني الذي قامت قيامته ليمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وقال الخبر: "على الرغم من تزايد الاحتجاجات في إسبانيا وخارجها ضد اضطهاد الحيوان، وخاصة طريقة معاملة الثيران، فإن البرلمان الإسباني صوت ضد مشروع قرار يمنع ألعاب ضرب الثور حتى الموت، وكانت بعض المنظمات الإنسانية وجمعيات الرفق بالحيوان قد نشطت في الفترة الأخيرة من أجل منع مثل هذه الألعاب"

وعلى الصورة المقابلة أضحى الإنسان في أمم الأرض، لا يرقى أن يماثل الحيوان عند الغربيين فيجد من يدافع عنه أو يفكر في رحمته.. هذا الإنسان الذي كرمه الله تعالى.. يُهان ويُذبح ويُنكل به كل يوم، أما الحيوان فيحفونه برعايتهم وتقديرهم ويضمنون له حقوقاً وواجبات، فياله من منطق أعور، وعقل فاسد وتصورات ضالة آثمة.

ولعلي أقف بك أيها القارئ على شيء أدركته، فهذه الثقافة العنصرية الغاشمة لها جذورها العميقة في تاريخهم فبعضها عقدي وبعضها وضعي، فإذا ما نظرنا للقانون الروماني الذي تُفاخر به أوروبا، حيث كان يطبق على المواطنين الرومان من أبناء روما والجاليات الرومانية المقيمة في الخارج دون بقية السكان، باعتبار أن غير المواطنين الرومان من بقية السكان ليسوا أهلا للوصول إلى هذه الدرجة، والحصول على هذا الامتياز!

إن هذا التناقض أصيل في تاريخ هذه الشعوب ومعتقداتها، وليس وليد اليوم، ورغم هذا القدم لا نجد جواباً شافياً لتفسير هذه الازدواجية في التفكير؟!

كان هناك حوار بين الرحالة والداعية المسلم التتري (عبد الرشيد إبراهيم) وبين أحد الفرنسين الذين التقى بهم في القطار عبر رحلته من أوفا إلى جيلاني.. لقد أصابه عبد الرشيد في مقتل حينما حاول الفرنسي أن ينتقد الشعوب الشرقية ويظهر شيئا من عوارها، يقول عبد الرشيد: (سألني الرجل الفرنسي ما سبب كثرة المعوزين من الفقراء والمحتاجين بين التتار؟ الشعب الأسير سيكون فقيرا ذليلاً لا يستطيع أن يتصرف بما يملك، والتتار سلالة تركية، والأتراك يهتمون بالنظافة كثيرًا، وأظن أن قومك التتار لا يهتمون بالنظافة..؟!

فقال عبد الرشيد: الأتراك العثمانيون يهتمون بالنظافة لأنها من أركان الإسلام، لكننا هنا ومنذ أن تسلط علينا النصارى فنحن قذرين مثلهم.. (يقصد الروس).

قال الفرنسي: هل لكم مدارس كثيرة؟ قال عبد الرشيد مدارسنا الابتدائية كثيرة، وليس بعدها شيء.. الفرنسي: كم عدد الذين يقرؤون ويكتبون منكم؟ عبد الرشيد: خمسون في المائة أو ستون؟ الفرنسي: عظيم أنكم متقدمون على الروس كثيراً، إذن فلماذا لا تؤسسون مدارس ثانوية وعليا؟

عبد الرشيد: لن تسمح الحكومة بذلك، ومع هذا فقد افتتحت في السنوات الأخيرة عدة مدارس يمكنها سد الحاجة.. -الفرنسي: كم عدد نوابكم؟ - عبد الرشيد: ثمانية - الفرنسي: إنه لأمر عجيب حقا! مليونان من الناس لهم ثمانية نواب ذلك ظلم فاضح..

يقول عبد الرشيد: وهنا اغتنمت الفرصة وقلت له: إذا وجدت القوة فلا تسل عن الحق، إن شعبكم الفرنسي يعامل مسلمي الجزائر كالبهائم ..يسبون دينهم ، ويدوسون حقوقهم الإنسانية بالأقدام ، فإذا استسيغ مثل هذا الظلم من شعب متحضر مثل فرنسا ، فلا يجوز لنا أن نلوم الروس على أفعالهم، وبدأ الامتعاض على وجه صاحبنا فاستأنف قائلاً: ما يسميه الأوروبيون بالحضارة هو مجرد قناع ، أو وسيلة للظلم فلا راحة للضعفاء ما دام الحكم للقوة، وفي هذه الأثناء وصل القطار إلى جيلاني فجمعت أمتعتي وودعت أصحابي ونزلت من القطار" وقد كان الرجل صادقا مع نفسه ولم يكابر وإنما اعترف أمام حجة عبد الرشيد بحقيقة الأوروبيين الهمجية.

وللشيخ الغزالي تعليق حول هذا التناقض لا بد من ذكره، ففي كتابة القيم (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) يقول: (" إننا ما ننكر التفوق الغربي في النواحي السياسية والاجتماعية، لكن فضائل الديمقراطية محظور تصديرها للخارج، وإنني أغبط أسرة الدول الأوربية الغربية على اختفاء المستبد من ربوعها، وعلى استقرار المجالس التشريعية، وتنفس كل إنسان في جو من الحريات الموطدة وتنافس الملكات الذكية في الخدمات العامة.. إن المظالم- فردية كانت أو اجتماعية - مرفوضة رفضاً قاطعاً، والرقابة على المال العام صارمة، وإحساس كل امرئ بامتداده ليس أمامه عائق، الشيء المستغرب أن حملة هذه الحضارة يحتكرون الصنف لأنفسهم، وتنقلب موازينهم عندما يعاملون غيرهم "

يقولون: إن في داخل كل إنسان طاغية ينتظر الظهور.. هناك ديكتاتور في داخلنا ينتظر الوقت المناسب والسلطة المناسبة للتحكم بالآخرين، فنفعل تماما كما يفعل مدراءنا ووزراءنا حينما نصل نحن إلى الكرسي ونحل محلهم.

ليت الطاعون يستمر!

أصابت جائحة كورونا حياة الناس برعب وذعر، وحصدت أرواح الكثيرين ممن نعرفهم وكانوا يعيشون بيننا، وصار كل إنسان يحذر على نفسه من الآخر، فما كنا نتصور في الزمن الذي تطور كثيرا في كل شيء، أن يلم به طاعون مرعب، كتلك الطواعين التي كانت تداهم الناس قديما، حيث لا مدنية ولا تقدم ولا تطور، ونقف حيالها عاجزين مكتوفي الأيدي.

مما حدا بالإنسان أن يعرف أنه مهما تجمعت له أسباب القوة والمنعة والتطور الحضاري، فلا ملجأ له إلا الله.

ولك أن تعلم أن الطواعين على مر الزمان، وحلولها كمحن مهلكة، كان فيها خير كثير، حينما كانت تدفع الناس دفعا إلى تقوى الله وخشيته، خاصة الظالمين منهم، ممن تسلطوا على رقاب الناس وثرواتهم وأموالهم.

كان هذا يحدث قديما وخاصة في مصر، فهل يا ترى حدث مثله في زماننا، واندفع كل ظالم أن يرد الحقوق، وكل معتد أن يستغفر وينيب، وكل سارق أن يتوب ويطهر نفسه من الحرام، حتى إذا أقبل أحدهم على الله، أقبل نظيفا طاهرا زاكيا سليما، لا يحمل في رقبته دينا أو مظلمة لأحد.!

لا أعتقد أن شيئا من هذا حدث، فالناس يرون الناس يتخطفون من حولهم، ولا يرتدون إلى الله في شيء، أمر واحد فقط هو الذي يعرف الله ويؤوب إليه، وهي ألسنتهم، أما ضمائرهم وأفئدتهم، فما أبعدها عن الموعظة، حتى لو رأت الهلاك يدق حياتها من كل جانب.

أعرف أن بعض الناس قد انخلع قلبه وغشاه الريب، وسارع إلى المساجد، يرجو عفو ربه، ويطلب النجاة من هذا البلاء المميت، ولكن هل مازال بنفس الروح التي كانت متقدة، عندما كانت الجائحة، تحصد الآلاف وتخيم بأشباحها؟

لقد عادت ريما لعادتها القديمة، بعد أن زال الخطر شيئا فشيئا، وهو حال الناس، وطبيعة البشر، الذين إذا أمنوا العقاب، وضمنوا السلامة، أوغلوا فيما كانوا فيه من لهو وعبث، وظلامات، وتجن واعتداءات.

كما أننا نحمد هذه الأوبة، فلعلها تدل على بقية من إيمان وحياء من الله، لكن المفزع في إنسان لا تترك المحن في نفسه أي نوع من أنواع الخشية والوجل.

قرأت مؤخرا عن هذه الحقبة التي مرت على مصر في زمن المماليك الفجرة.. حيث انتشر الطاعون في بعض أزمانهم، وتفشى أمرة وحصد الأرواح وأهلك الأنفس، وكان الناس يعانون معه ظلم المماليك وقسوتهم، حيث كانوا يسرقون المحلات، وينهبون البضائع، ويسطون على أقوات الرعية، ولما تفشى الطاعون، وفشلت كل وسائل

الوقاية التي لجأ اليها المماليك لحماية أنفسهم من عدواه، وتحصين أجسادهم الحاكمة ضد خطره، حيث استفحل وشاع حتى طال بمخالبه الوحشية الطبقة العليا المرفهة في المجتمع آنذاك.. عرفوا الله، وبدأوا يعترفون بخطاياهم، ويكفرون عن ذنوبهم، ويوما من رمضان أصاب الطاعون أحدهم، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين ايديهم قماشا كثيرا وأموالا طائلة تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف دينار، واعترف امام الشهود بأنه نهب ذلك من مكان سماه، ثم قال لغلامه

امض" وائتني بأصحاب ذلك المال.. فمضى الغلام ـ والشهود جالسون عند المملوك المشرف على الموت – وأحضر أصحاب المال فسلمهم، المملوك ما لهم بحضور الشهود، وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا، مات.

وفي الليلة نفسها، مات مملوك آخر، فوجدوا عنده خمسة عشر ألف دينار، ذكر لغلامه قبل أن يموت أنه نهب ذلك من دكان حدده في حارة زويلة، وحمل المال الى خزائن السلطان لكي يرد لأصحابه.

في رمضان ذاك اعترف اللصوص والنهابون والقتلة، بما ارتكبوا من معاص، وخشى المماليك ان يقفوا بين يدي الله بذنوب لا تغسلها كل مياه المعمورة، وارتفعت دعواتهم إلى الله يعلنون توبتهم عن عذاب صبوه على شعب مسكين، وهبهم أكثر مما يستحقون ومنحوه الجوع والسجن وافتقاد الأمن.

لكنه في آخر رمضان، انحسر الطاعون نسبيا، وعادت ريمة لعادتها القديمة، ومما يذكر: أنه وقع في يد السلطان مواطن اتهم بتهمة تافهة، فأمر بسلخ وجهه وهو حي، فسلخوه من رأسه الى رقبته وأرخوا جلد رأسه ووجهه على صدره.. وصار عظم راسه ظاهرا، وطافوا به في القاهرة، ثم علقوه على باب النصر واستمر معلقا الى أن مات.

وهنا قلت في نفسي: ليت الطاعون قد استمر ليستمر العدل والإحسان بين الناس.

النفوس الآسنة

أظلم من في الكون هؤلاء السخفاء الذين تلتقي بهم في حياتك، فيعترضون يومك دون اختيار منك أو رغبة، تسير هادئ النفس سليم الفؤاد، فتلاقي بعضهم لينغص عيشك ويكدر مزاجك ويفسد بياض قلبك بسخفه القميء.

حتى ليخيل إليك أنك صرت في عالم آخر، أو أنك في عالم غير الذي ينبغي أن تكون فيه، أناس يفتقدون للرقي الإنساني، ويشغلون أنفسهم بنتن الحياة، والرغبة الجامحة في إفساد أجواء العقول، وتعكير حال النفوس..الصبر عليهم يحتاج لطاقة كبيرة، لكنها طاقة سينهار معها كثير من دمك الذي سيحترق، بل يذوب معها جمال عقلك الذي تريد الحفاظ عليه.

أحيانا يخاطب المرء نفسه: هل يمكن الهروب والعزلة من حياة هؤلاء، وهم يحيطون بك في كل مكان، ويكادون من قربهم أن ينافسوا هذا الهواء الذي تتنفسه لتحيا به.. أحب الصفاء والأصفياء، ألوذ بالطيبين الذين يراعون كل حركة وسكنة ولفظة تخرج من دواخلهم تجاه الآخرين، أما هؤلاء الذين يعانون نقائص النفس وعقد الحياة، ولا يجدون لأنفسهم علاجا إلا أن يمارسوا سخفهم وتسلطهم على الآخرين، ممن يشعرونهم بوخذ هذه النقائص، فلا طاقة للنقي بهم، ولا قلب يتحمل هرجهم.

إن أحدهم ليجد نشوة ومتعة وهو يغمز غيرة بتحاوير الألفاظ، التي يريد أن يعبر عن شيء يكيده بها، لكنه يغلفها بشيء من المواربة والمداراة، حتى لا يُتهم بالمباشرة في العدوان، فنجاحه الحقيقي، أن يرميك بالألغاز التي تدور معها وتحور.. وتظل تسائل نفسك: ماذا يقصد؟ ماذا يريد؟ إلام يلمح في غرضه ورميه.. لقد حقق غايته ومناه، وشعر في نفسه بأنه ذكي حينما صاغ عبارة مطوية تثير المشاعر وتنغص الأمزجة.

لقد تعلمت في هذه الدنيا أن الإنسان النقي النظيف كنز ثمين في هذه الدنيا، وربما تزداد قيمته ومقامه في نفسك، حينما ترى أمثال هؤلاء السخفاء في حياتك، من يقضون حياتهم في الهرج والمخرج، والغمز واللمز، ومحاولة السخرية من الآخرين.

قال لي صديق ممن مسهم أذى اللُمزة: مازلت ألعن قلبي أو بمعنى أدق ألعن قدمي، التي دعتني يوما للوقوف مع أحدهم، وأسمح له بحواري وكلامي، لتنتج كل هذه الكوارث والمزعجات، التي أقضت مضاجعي، وأرهقت نفسي، وإياك يا صديقي أن تظن أن المشكلة والداء مني وفي، أو أنني حساس بعض الشيء، أبدا أبدا.. ولكن يبدو أن هجري لهذا المجتمع، قد أفقدني أن أقف على كثير من تطوراته المخزية، وأخلاقه المحزنة، وسلوكياته المتردية، حتى إذا ما جئت اليوم لأنضم إليه وأعيش فيه، حدث هذا الصدام الرهيب بين العقول والأخلاق والطبائع والسمات.

يبدو أن هذه العزلة بين الكتب والانفراد بالقلم، أحدث شرخا كبيرا في فهمي لما أصبح عليه الناس من طبائع رذيلة، وأخلاق جاحدة، وطبائع مرة، لا تستسيغها نفسي وحسي ووجداني.

أحيانا يا صديقي أشعر أن أمثال هؤلاء البغاة، واسمح لي في هذا التعبير، فهم فعلا بغاة ظلمة جبابرة، يخيل إلي أنهم عقاب يسوقه الله تعالى في طريقي ليكونوا تماما مثل هذه الالام والجراح التي تكفر بها عن ذنوبك.. ولكن صدقني لو قلت لك: إن لذع الآلام أهون بكثير من لقاء هذه الطغمة الآسنة، آسنة النفس والروح، مجردة من الرقي والصفاء والسمو.

سئل دوستويفسكي ماذا تريد فقال:

أُريدُ أنْ يكونَ هناكَ إنسانٌ واحدٌ على الأقل، أستطيعُ أنْ أكلّمه كما أُكلِّم نَفسي

اللحم المتفحم

كان ذاهلا شاردا يتلفت يمنة ويسرة، تشعر حينما تنظر إليه أن ذعرا وهلعا تملكا عقله، وسيطرا على فؤاده، وأظهراه في هيئة مجنون تصرعه دوامة من الاضطراب المؤرق.

علمت أن جريمة عظيمة وقعت له ولأسرته، أذهبت جنانه، وما عاد بعدها إنسانا عاديا، يمتلك كما يمتلك الناس تفكيرا مستقيما أو نفسا سوية.. ساقني ما رأيت من هذيانه، وشعوره المفرط بالفزع، أن أعرف ماذا جرى وماذا حدث؟ عساني أخفف من بلائه وأسري عنه في محنته.

ورغم إغراقه في شروده وريبته التي صار بها أشبه بالمجنون منه إلى العاقل السليم، إلا أنه استجمع طاقته وبدأ الحديث:

هربت من القصف ومعي زوجتي وطفلنا الرضيع، وليتني ما هربت، فقد كان هروبا مهلكا، إذ وقعت في ثكنة عسكرية تضم وحوشا بشرية، لا قلب لهم ولا يعرفون الرحمة، قاموا باغتصاب زوجتي ورموا بطفلي في مدفأة تشتعل بالنار، فأخذت أصرخ أنا وزوجتي صراخا متواصلا حتى فقدنا الوعي، وما صحونا إلا على ركل أقدامهم، ودفع نعالهم، ثم أحضروا لنا لحما مشويا قد تفحم، وألصقوا بنادقهم بأجسادنا وأمرونا بالأكل.. كان ذلك اللحم هو لحم ولدنا الرضيع.!

اسمح لي أخي القارئ أن أخدعك، أو اغفر لي حينما تعلم أني خدعتك، فأنا لم أقصد بهذا العنوان أن أروي لك قصة أدبية نسجها خيالي، وليس لإبداعي أي أثر فيما رويته لك من هذه المشهد المفجع المؤلم الذي تعاف النفس تفاصيله الدامية.

ولا تظن أيها القارئ أنني أسرح بك في خيال أديب، وأنني صغت لك قصة قصيرة مليئة بالأسى والحزن، تعبر عن الإنسان حينما يطغى ويتوحش.. أو أنني تعمدت هذا الحكي المثير المشوق لأجعل قلبك يتلوى من الألم، فأفرح وأنتشي لأنني أثرت فيه وغيرت من مشاعره.

أبدا أبدا فما قرأته في هذه القصة، حدث بالفعل، وشهده الواقع، حينما تآمرت الصليبية العالمية على شعب مسلم ضعيف، كل مشكلته معهم أنه مسلم.

إن العدوان على شعب البوسنة والهرسك بهذا التوحش المذهل، كان مأساة في جبين الإنسانية والمسيحية، ومن رأيته اليوم يقف متفلسفا، وهو يتحدث عن قسوة الإسلام وخرافة الإرهاب التي ألصقوها به، فما عليك إلا أن تقف وتبصق في وجهه، عسى أن ترده هذه البصقة، فيتذكر عاره وجرائم قومه.

لقد كان الصرب الملاعين يتفننون في تعذيب المسلمين بصورة تشك معها أنهم ينتمون للبشر ولمعنى الإنسان، وكنا وقتها نسمع ونشاهد تلك الصور التي التقطت من هناك لتحرق قلوبنا وتلتاع

نفوسنا، ونحن نغط في عجز ذليل، كنا نشاهد هذه الجرائم ونتعجب: كيف بلغ هؤلاء الناس هذا المبلغ من القسوة والتوحش.؟

وكيف وقف العالم طويلا في صمته المطبق؟ أمام ما كان يشاهد من جرائم بشعة، لم يأت بمثلها أسد الغابة والأشداء من عالم الحيوان.؟!

ليت قومي يعلمون

قال لي صديقي: جلست يومًا من الأيام بعدما أرهقتني مصروفات البيت مع زوجتي: وقلت لها: تعالي لنحلم قليلا حتى نخرج من آلام فقرنا وقلة حيلتنا.. ما رأيك لو قلت لك: أتمنى أن يرزقني الله مليونا من الجنيهات؟

- وماذا ستفعل به لو رزقك الله إياه؟!

قال الزوج: سأعطي ربعه لأختي التي ترعى أيتامها، وأعطي ربعه الثاني لأخي يقيم به مشروعا يعينه في الحياة، وأعطي أمي ربعه الثالث جزاء ما أنفقت علينا وتعبت في تربيتي وإخوتي، أما الربع الأخير فأزوج به أختي الصغيرة التي هي مسؤولة عني وتحت كفالتي.!

فقالت الزوجة: ونحن ماذا نأخذ؟! لقد فكرت في كل من حولك إلا نفسك وأولادك وبيتك وزوجتك.

فقال الزوج: يا عزيزتي هكذا تربينا وجبلنا أن نفكر في غيرنا قبل أن نفكر في أنفسنا!

وحينما سَمعتُ حواره مع زوجه قلت له: إن ما صنعته هو خلق النبلاء الذي لفت إليه القرآن الكريم ونوه به في إشارات بلاغية واضحة

-هل ذلك حقيقي؟ قلت نعم، قال فمن المواضع التي جاءت في كتاب الله تشير إلى ذلك؟

قلت له انظر هنا:

١ - قصة مؤمن آل ياسين حينما دخل الجنة فلم يكن أول ما نطق به لسانه إلا أن قال: (يا ليت قومي يعلمون) كان من المفروض أن يتغنى بنعيم الجنة وما يراه من رضا الله تعالى، لكنه عقله كان وما زال يفكر في قومه حتى بعد النجاة والفوز بالنعيم المقيم.

٢ - في قصة موسى والخضر حينما قام الخضر بخرق السفينة التي يركبا عليها فسارع موسى عليه السلام وقال له أخرقتها لتغرق أهلها ولم يقل له: لتغرقنا أو لتغرقني، لأنه كان يفكر في الناس ابتداء قبل التفكير في نفسه.

في كتاب (بين الحياة والموت) للأستاذ كامل الشناوي يقول فيه: " زارني بالأمس صديق يعاني ما أعانيه من هواجس في الحياة، وقال لي بنبرة شاكية: إن زميله في العمل دس له عند مدير المكتب، فسألته: وماذا جرى؟ فقال: لا شيء.. فقد عرف المدير الحقيقة وأثنى على كفايتي ونزاهتي، وأقصى عنه الموظف الدساس.. ولماذا أنت حزين؟ ألا تكفيك النتيجة؟

قال: أؤكد لك أني تألمت لما أصاب زميلي من عقاب، ولما أصابه من انتكاس في أخلاقه وعواطفه، وعجبت كيف يصنع معي هذا

وهو صديق منذ عهد الدراسة، ولقد ساعدته في عمله، ووقفت إلى جانبه في أوقات عصيبة.

واستطرد يقول: أليس عجيبا أن تحسن إلى الناس فيسيئوا لك.؟

قلت له: لا تظلم الناس فهم ليسوا جميعًا مثل زميلك، إذ بينهم من يغلب عليهم الخير فيمنحك الحب والود والغفران، وبينهم من يغلب عليه الشر فهو يحقد عليك لكل سبب وبدون سبب."

ولعل هذه الشيم من النادر جدا أن نبصر لها أصحابًا في حياتنا أو نجد من يحمل مثلها في مشاهدنا اليومية، فهي أخلاق نادرة، تكاد تنتمي إلى دنيا الأساطير من كثرة ما نسمع اليوم ونرى من صور الجشع وألوان الطمع بين الإخوة والأهل قبل أن تكون بين الغرباء.

فالناس يأكل بعضهم بعضًا، ويطحن بعضهم بعضا، وتآكلت من حياتهم كل كثيرا من معاني الشرف والضمير والدين، وقد يكون المرء محبا للناس أو محسنا إليهم.. لكن أن توجد مثل هذه الصورة السامية في حب البشر والاهتمام بهم والانشغال عليهم فما أسعدها من أرض تحمل أمثال هؤلاء.

عقدة نقص

لا أعلم ما هذا النقص وهذه العقدة المريعة التي تتضخم في ذوات بعض الأشخاص، فيبلغون درجة هائلة من النرجسية الوضيعة التي يسقطون بها من أعين الناس حينما يصرحون بها أو يعلمونها عنهم ويظهرها ما يحيط بهم من مواقف.

في الفترة الماضية دعيت إلى كثير من الصالونات الأدبية، وحضرت عددا كبيرا من المناقشات النقدية، متحدثا لا مستمعا، ولم أنظر أبدا لمسألة ترتيب المتحدثين أو يساور خيالي هذا المعنى أو أفرضه على المنظمين أن يضعوني أول المتكلمين، فليتكلم أمامي من شاء أن يتكلم، فلن يزيده هذا ولن ينقصه، لان المسار الحقيقي الذي يرفع المتحدث أو يضعه هو لسانه الذي يتحدث به، والعلم الذي ينطق به، والجديد الذي يبديه ويبهر به الناس.

أما قصة أن أكون أول المتحدثين أو ثانيهم فلم تهمني في يوم من الأيام، فالله تعالى قد منَّ عليَّ بنعمة التواضع والافق العالي الذي لا يرى في هذا الصنيع مذلة او صغارا للنفس، حتى لو تكلم امام طفل صغير، فلن يخدش ذلك من كرامتي ومكانتي شيئا.

منذ عام مضى نظمت لي الاخت الكريمة غادة صلاح الدين غادة صلاح الدين ندوة عن كتابي الأثير عبد الوهاب مطاوع.. رحلة في

حية الكاتب والانسان) وتوجهت لتلامذة الاستاذ مطاوع رحمه الله ادعوهم للحفل والحديث فيه، وكان منهم صحفية من تلامذته وآخر صار اليوم رئيسا لتحرير مجلة الشباب، أي في موقع الاستاذ مطاوع، واستأذن الرجل أن يكون اول المتحدثين، لان له بعض المهمات التي يقضيها وتشغله، وحينما علمت زميلته في التلمذة على الاستاذ مطاوع، انه سيتحدث قبلها، قامت قيامتها وتذمرت وتأففت وغضبت وهاجت وماجت، واعلنت انها لن تشارك في الندوة إلا إذا كان حديثها قبل حديث صديقها، بدون أي أعذار اللهم إلا تصلب الرأي وهوى النفس وعقدة نقص تحكمت فيها.

احترمت موقف الصحفي الكبير وقدرت عذره، ولكني لم احترم ابدا موقف رفيقته في درب الصحافة، التي تأجج كبرا وصلفا وغرورا.

كان هذا الموقف من المواقف التي جعلتني أقدر قيمة نفسي حينما تخلت عن هذا الكبر وهذا الغرور والاعتزاز الواهي بالذات.

كما جعلتني احمد الله ان عافاني من هذه الأدواء والصغائر المستحقرة، فمن تواضع لله رفعه..

يذكر الأستاذ حافظ محمود فيقول: "أذكر أنه وأنا كنا مدعوين للخطابة في حفلة كان بقية الخطباء فيها بين رئيس وزراء ووزير سابق وأعد برنامج الحفلة بالترتيب الرسمي فرئيس الوزراء يسبق رئيس مجلس الشيوخ ورئيس المجلس النيابي يسبق الوزير وعضو مجلس

الشيوخ وهو العقاد يسبقني، وبهذا الترتيب جاء اسمه واسمي آخر الأسماء.

ويومئذ سمعت رنين التليفون في بيتي قبل السادسة صباحا فإذا بالمتكلم هو العقاد، وهو في ثورة عارمة بعد أن اطلع من فوره على برنامج الحفلة في الصحف، وإذا به يطلب إلى أن أنذر منظمي هذه الحفلة إذا هم لم يعدلوا برنامجها بحيث يكون اسمانا قبل الأسماء الأخرى، فإننا نحن الاثنين لن نشترك في هذه الحفلة"

لله دره فأي اعتزاز بالنفس هذا الذي يرى مكانته أعظم من مكانة الوزراء وهو ليس عقدة أو شعورا بالنقص ولكن العقاد كان هكذا فعلا بقلمه وفكره لا يمكن أن يدانيه رئيس أو زعيم، لقد كان يرى نفسه فوق هؤلاء جميعا."

وهنا هل يمكن ان نذم العقاد ونقلل منه امام هذا الموقف الذي يشبه موقف اختنا الصحفية تلميذة الاستاذ مطاوع؟

ابدا ابدا فلقد كان هذا العقاد الذي يحق له ان يفعل ذلك لانه العقاد، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يخطئ في حق العقاد الذي ساواه قلمه وفكره بالقادة وللزعماء بل فاقهم رتبة ومكانة في تاريخ الامة، اما اختنا فلم تساو العقاد في شيء.

دعوة أم

ليس شرطا حينما يكافئك الله سبحانه على خير فعلته، أن يعطيك ويمنحك ويهبك من عطاء الدنيا وجاه الحياة.

بل إن أعظم ما يقابل الله به تعالى صاحب العطاء، أن يكتب له النجاة مما قد يصيبه من الشرور والمهالك والمصائب والسوء.

أذكر أنني منذ ثلاث سنوات، تعرضت لحادث مميت في الشارع، حينما أطاحت بي سيارة يقودها شاب عشريني مستهتر، ينظر في هاتفه ولا يلتفت إلى الشارع فيرى من يمر به، حتى أنني تعجبت وهو قادم نحوي بكل سرعة كيف لا يراني؟!

وما هي إلا لحظة خاطفة وفي أقل من ثانية، حتى صدمني وأطاح بي في الهواء، واصطدمت بالرصيف وارتميت فاقدًا للوعي، ولامست سحب الموت وهي تقترب مني، وشعرت بأجنحته ترفرف على جسدي، لولا لطف الله بي.

المهم.. كان آخر عهدي بالدنيا قبل هذه الحادثة بلحظات يسيرة، حينما خرجت من أحد المولات أشتري منه بعض الأطعمة، وفي حساب الكاشير أعطاني بعض هللات تقدر بريال ونصف، كان ذلك وقت عملي بالمملكة العربية السعودية، وحينما خرجت، وجدت رجلا مسنا فقيرا يمد يده إلي، فأعطيته هذه الهللات ومشيت لشأني.

لم تمر دقائق معدودة، حتى حدث ما حدث، فلم تكن حادثة عادية، أو أنني أهول من شأنها، فقد اصطدم رأسي بحافة الرصيف وأحجاره المدببة، وكسرت تركوتي، وتمزقت أربطة قدمي، وأجريت عملية جراحية عاجلة، تكلفت سبعة مسامير وشريحة.

إنني أعتقد وأومن أن نجاتي من هذا الحادث كانت بفضل هذه الهللات التي أهلتني للحياة مرة أخرى، وأنا هنا لا أرويها من باب التفاخر والرياء، أو مدح النفس بأنني من المنفقين، أبدا أبدا.. فتأثير الموقف في نفسي، أثمن وأعلى من أي محاولة للشعور بالرياء والتباهي.

تذكرت هذه الحادثة حينما روى لي أحد أساتذتي، أن ضابطا أخبره: أنه كان يمر في إحدى المحاكم ووجد امرأة تناديه بصوت عال: يا محمد بيه يا محمد بيه.. فالتفت لها فقالت له: أنا دعيت لك في الحرم المكي وعند الرسول في المدينة، ربنا يبارك فيك ويحفظك، على ما أسديته لي من معروف، فقد كان ابني في قضية ينتظر الحكم عليه، وطلب منك أن تعطيه هاتفك ليتصل بي، فيطمئنني، ومن يومها وأنا أدعو لك.

يقول الضابط لأستاذي: خرجت بسيارتي على الطريق، وما هي إلا ثوان حتى وجدت الطريق يعلو عني بثلاثة أمتار، والسيارة محطمة، وفلاح يقترب مني ويقول لي: انت كويس؟ حرك رأسك، حرك ذراعك، ثم خرجت من سيارتي من حادث لا يمكن النجاة منه أبدا.

لعل هذه الدعوة التي ساق الله سبحانه معرفتي بها هي التي نجتني، علما بأنني لا أعرف ولدها، ولا أذكر ذلك اليوم الذي أعطيته فيه هذا الهاتف. لكنها لا شك دعوة أم حائرة.

حسرة تملكتني

حسرة كبيرة تملكتني وأنا أقرأ شيئا مبهجا من حياة الإنسان وتصرفاته ومواقفه.

نعم كانت حسرة لا تحدها حدود، حينما قرأت عن الغرب وطبيعته وسلوكه، ومدى وعيه بمستقبله، ورصده لمعالم وسبل تفوقه، حسرة تملكتني لأن مثل هذه المعاني والمواقف، قد حرم منها الشرق المسلم، مع أننا أجدر الناس بمثل هذه التصرفات والسلوكيات، التي بعثت بها وحثت عليها عقيدتنا وملتنا.

قرأت منذ أيام كتابا قديما للدكتور طه حسين، كان قد ألف مقالاته في عشرينات القرن الماضي، تحديدا عام ١٩٢٣م، حينما كان في أيام السفر إلى فرناس ورحلة الطلب العلمي.

الدكتور طه رصد أشياء جميلة تعكس صورة الغرب في حفاوته بالعلم وتقديسه لمساره، وإيمانه الكبير بأنه سبيل السعادة والنهوض والترقي.

كان هذا الايمان على جميع المستويات، الفقراء والأغنياء، الكبار والصغار، المسؤولين والمحكومين، الرجال والنساء.

أما أنا وبينما الدكتور طه منشغل بتسجيل هذه الوقائع، كادت الدموع تفر من عيني، لأننا وبعد كل هذه العقود الزمنية الكبيرة، لم

نستطع الوصول أو حتى التقارب مما وصل إليه الغربيون في وعيهم ومستواهم الفكري عن المسؤولية المجتمعية التي تجمع مستقبلهم ووطنهم على طريق واحد.!

يقول الدكتور طه:

"أقرأ في جريدة "الطان" أن رجلا أهدى إلى جامعة باريس، عشرة ملايين، لإقامة حي خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة، بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا في منازل صحية يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم، واقرأ في جريدة «الطان» أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس وثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليونا. واقرأ في جريدة «الطان» أن هذه المرأة قبل أن تموت أهدت الى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال وأنها أهدت مرة الى جامعة باريس مقدارا من المال تنفقه في طبع الرسائل التي يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه. وأهدت مرة أخرى الى جامعة باريس، ما يمكنها من انشاء درس لأدب القرن الثامن عشر وتاريخه، وأن امرأة أخرى أهدت الى جامعة باريس ثروة تبلغ (٣٥١٠٠٠) فرنك في السنة لترقية البحث عن «الراديوم» في الطب. وأن رجلا ترك لها نصف مليون. وأن أستاذا في مدرسة ثانوية ترك ثروته التي تبلغ ٧٦.٤٠٨ فرنكات لإعانة طلبة التاريخ الحديث، وان امرأة تركت مليونا لإعانة المؤرخين على بحثهم التاريخي. واقرأ في الصحف المختلفة أن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللعب قد خصصت جزءا من دخلها في يوم من الأيام لإعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية

المختلفة. بل اقرأ ما هو أغرب من هذا. اقرأ تعاون الفقراء والمعوزين وافتنانهم في جمع المقادير المختلفة من المال لإعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها."

نقل طه حسين هذه الصورة، وصف هذه الكلمات، منذ مائة عام، وكأنه يريد أن يوقظ أمته من ثباتها وحيرتها وضياعها وخمولها وضعفها.. وبدلا من أن نهتم بما كتب عنه ودعا إليه ونقله أمام أعيننا من حال الغربيين، صرنا نعظم طه وتركنا كلامه، فهو عندنا ذلك الأديب العظيم، عميد الأدب العربي، أما كلامه ودعوته، فلا تعظيم ولا تقدير، لنقبع بعيدا عنها في ضعفنا وخمولنا وأثرتنا وأنانيتنا، التي ابتعدت بنا عن مفاهيم المسؤولية الاجتماعية.

ما أنبله من زوج

كتبت مقالا عن ذلك الممثل الذي بكى زوجته حرقة على فراقها حين وفاتها، لكن بعض الكرام لم يعجبهم أنني قدمت هذا النموذج في مثل هذا الموقف الإنساني، حتى لا يكون قدوة للناس وهذا حقهم، فحياة الممثلين بها بعض الشوائب التي تسوء حياة الأسوياء، لكنهم نسوا أن هذا الممثل قبل كل شيء فهو إنسان ينتسب للإنسانية، وله علينا حق الإنسانية.. لقد ذكروا كيف أنه يحتضن النساء ويقبلهن، ومن ثم اعتقدن أنه بهذه المعصية فإنني أدنس قلمي بمجرد الحديث عنه.. فما دام مخالفا للشرع، فليس من حقه حتى أن نعامله معاملة إنسانية.

ولكن منهجي طيلة حياتي والذي استلهمته من قيم ديني، أن أطلب الحكمة أيا كان موضعها وأيا كان مصدرها، حتى ولو كانت من كافر أو فاسق أو علماني ملحد.

إن ديني يفرض علي ألا أنسى معاني الإنسانية، وأن أنشد الخير في نفوس البشر على اختلاف طبائعهم وأديانهم.. فالإنسانية عامل مشترك بيننا جميعًا، وفي إحياء معانيها ضرورة ملحة لتستمر الحياة على منهج التراحم بين البشر.

أرأيتم إلى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وهو يذكر ابنة حاتم الطائي فيقول: "إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق" رغم أنه

ليس مسلم ومات في الجاهلية.. بل قال صلى الله عليه وسلم: "إن أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ" متفقٌ عليه. وذلك حينما قالها في الجاهلية قبل إسلامه

ومعنى ذلك أن كل عملٍ لا يراد به رضا الله فلا خير فيه وهو إلى زوال.. ونحن نعلم قوله كذلك في حلف الفضول وكيف لو أنه دعي إلى مثله اليوم للبى واستجاب، وهو حلف قام على نصرة الضعيف المغلوب قبل الإسلام.

لقد كان النبي إذن يستحسن من أمور الجاهلية وأقوالها ما يدعو إلى الخير والبر والإحسان إلى الإنسان.

وعليه فإذا صدر من أحد من الناس لا يروقنا سلوكه وطريقه موقف محمود، فعلينا ألا ننكر شيئا من الخير والسمو قدمه، وصار فيه مسار الإنسان الرحيم المنكسر.

لقد قرأت اليوم لإحدى الصديقات وهي تروي من حياة الممثل الفنان صلاح نظمي الذي أحب فتاة أرمنية واسمها" أليس يعقوب " وحاول أن يتقرب منها ليلفت نظرها، لكنها نهرته بشدة، فذهب لعملها فوجد شقيقها فطلبها منه، وبالفعل تم الزواج سنة ١٩٥١ _ بعد أن أشهرت إسلامها واختار لها اسم "رقية نظمي" وعاش معها ١١ عام وأنجب منها ولدهما الوحيد حسين

بعد مرور ١١ عام أصيبت زوجته بمرض أقعدها الفراش، وحرص صلاح نظمي على خدمة زوجته القعيدة على كرسي متحرك، لمدة ثلاثين عاماً كاملة، رافضاً أن يتزوج غيرها، وكان ينفق معظم الأموال التي يتقاضاها من الأعمال الفنية على علاجها ومرضها، ولم يمل يومًا لطول مرضها، وقد عرضت عليه زوجته الزواج كثيرًا فكانت تقول له: " اتجوز لكي تعيش بقية حياتك "، وكان رده عليها دائماً لو أنت عضم في "قُفة" مش ممكن أتجوز عليك أبدًا، أنا بحبك.

واستمر على هذا الوضع حتى توفاها الله في بداية ١٩٩٠ وبعدها دخل في حالة من الاكتئاب الشديد أثر وفاة حبيبة

عمره، وينقل بعدها بفترة قصيرة إلى المستشفى، ويظل لشهور في العناية المركزة حتى فاضت روحه إلى بارئها في ١٩ ديسمبر عام ١٩٩١م.

الموقف طبعا لا يحتاج إلى شرح أو تحليل، لكن يكفي أن أشير إلى كل معترض فأقول: لقد أسلمت المرأة وتسبب زوجها في إسلامها.. فهل تعرفون ما معنى هذا؟ بل هل تعرفون ما مدى ثواب هذا عند الله سبحانه؟!

إن أحدهم يقضي حياته كلها في ظلال الإسلام خادما طائعا، لكنه لا يرتقي أبدا لأن يسلم على يديه رجل أو امرأة على غير الملة. فماذا نقول لمثل هذا إذن؟

هوَس الفضيلة

تهليل كبير وتضخيم هائل لقصة الطفلة هايدي صاحبة كيس الشيبسي مع الرجل المسكين.. حتى أنك تتخيل وتظن معها أن هناك أصابع خفية لنشر وذيوع مثل هذه القصة على أوسع نطاق، لتكون حديث الملايين الذين يتعاطونها بديلا عن قضية فلسطين وشهدائها الذين نفقدهم كل يوم وقلوبنا تعتصر عليهم ألما وحزنا.

أو هي حادثة ما روج لها إلا مجتمع يعيش حالة من الفراغ والتفاهة، وتعجبه النوادر السطحية ويجعل منها كأنها أسطورة لم يعرفها العالم من قبل.

ورغم اندهاشي من حالة التضخيم الكبيرة التي أشعر فعلا أنها مصطنعة، إلا أنني من زاوية أخرى مسرور جدًا وغير متذمر من هذه الحالة من الهوس، لأنها مهما كانت هوسا وفلسا وجنونا، إلا أنه هوس محمود طالما يصب في صالح الفضيلة، نعم مهما كانت التفاهة بادية، وأقصد بها تفاهة التلقي لا تفاهة الحدث، مهما كانت هذه التفاهة متأججة فوق طاقتها، وزائدة عن حالتها، إلا أنها تصب في صالح الفضيلة وخدمة القيم، فالمجتمع الذي أوشك على الإفلاس، ويرمينا كل يوم بفجائع الأخبار التي تنبئ عن حاضر كئيب يضج بالإجرام والخطيئة والبلطجة والانحراف والفساد والانانية، جيد جدا أن تشيع فيه مثل تلك الأنباء حتى ولو أخذت أكبر من حجمها حيزها وقدرها،

وإن مجرد النفخ فيها، هو عندي دعم لكل بذور الاستقامة التي ترتقي بها المجتمعات.

ربما نستاء من التهويل الإعلامي لقصة الفتاة، ونشعر معها – بأفورة – مقيتة مملة، لكننا لا يمكن أبدا أن يغيب عنا البعد التربوي الذي يعد البطل الحقيقي لهذه القصة، فالفتاة أنبأت أن من علمها هذا البر ودفعها إليه، هما والديها، وربما تكون فيه إشارة لكل البيوتات والآباء أن تعليم الجيل الناشئ معاني الرفق والرحمة والانسانية والشفقة والإحسان شيء عظيم مستحسن، حتى يخرجوا للدنيا نماذج سوية، تَرِبت على آلام الناس، بدلا من أناس يذيقونهم صنوفا من الهول والتعاسة والقسوة والإجرام..

إن كل ترويج للفضيلة حتى ولو كان مبالغا فيه فهو عظيم مقبول، لا تذمه ابدا او تعترض عليه، لأن حياتنا المطحونة تحتاجه وأخلاقنا التي تتردى تتطلبه.

وحينما تعترض.. عليك أن تفقه أولا قبل اعتراضك أبعادا اجتماعية، وظروفا حياتية، يمكن أن تغير مسار هذا الاعتراض.

الرافعي والترام

ننبهر ونتعجب كلما رأينا رئيس وزراء انجلترا يركب المترو مع المواطنين العاديين الذين يجلسون عن يمينه ويساره، كما نندهش من رئيس وزراء هولندا مارك روتتي الذي كان يركب الدراجة في ذهابه لعمله، ووزيرة العدل الفرنسية كريستيان توبيرا التي أقلت دراجتها وغادرت مقر الوزارة بعد استقالتها.. ووزير البيئة والطاقة الدنماركي مارتن ليدغارد الذي يذهب بدراجة هوائية إلى مقر عمله في الوزارة أو إلى البرلمان بقصد توفير الطاقة.

أمثلة محيرة نستمع إلى أخبارها ونشاهدها إليها وكأننا نستمع إلى أساطير أو قصص خيالية لا يصدقها العقل أو تقبلها الأذهان!

ولعل السبب المباشر في حيرتنا واندهاشنا أننا ألفنا الوزير والوزارة شيئا آخر وصورة مختلفة غير التي نسمع عنها ونتلقى أنباءها.. فالوزير عندنا ننظر إليه أو ينظر هو إلى نفسه على أنه طبقة وجنس غير جنسنا وأنه ارتقى مرتقى صعبا ورتبة عليه ولم يعد كبقية الناس كما كان قبل الوزارة التي غيرت كل شيء في أسلوب حياته في مأكله وملبسه وركوبه ومشيته وأفعاله وتصرفاته.. الوزير عندنا في حصن منيع لا يستطيع أحد مساءلته أو اتهامه لأن هيبته من هيبة الحاكم الذي أتى به وعينه في منصبه.. الوزراء لدينا يعيشون في أبراج عاجية بعيداً عن مشكلات الناس لا يفهمونا ولا يشعرون بها ولا يسارعون للقضاء

عليها، ناهيك إن كان لصاً حيث يقبع على كرسيه ولا يشغل باله إلا بالنهب من ثروة البلاد قدر ما استطاع وقبل أن تنتهي المدة المقررة له.. ليعيش بعدها منعما في المال الحرام الذي خان فيه شعبه ووطنه ودينه وإنسانيته..

أما الوزير في الغرب فهو الذي إذا أردنا رصد طبيعته ومكانته فيكفينا عنه جملة واحدة إنه يسير بدراجته في الشارع ويركب الترام مع الناس مما يدل على شرفه ونزاهته وإيمانه الكيد بالعمل كخادم للأمة وساهرا على راحة المواطنين.. وهو الإيمان الذي ينقص وزرائنا أن يتحلون به ويملؤون به صدورهم ويزكوا به قلوبهم حتى تنهض بهم بلادنا من ركدتها وخيبتها.. وفي تاريخ مصر ومن عشرات السنين تبحث وتنقب وتتقصى لترى نموذجاً يحاكي وزراء أوروبا فإنك لا تجد لأنه وببساطة لم يكن هناك ذلك الفهم الرائع لكلمة المسؤول الذي يوكل الله إليه أمر الناس ويجعل مصائرهم أمانة في عنقه..

وبين ثنايا التاريخ وفي صفحاته كانت المفاجأة النادرة عام ١٩٤٩م في ذلك الوزير المصري الذي فعل مثل ما يفعل وزراء أوروبا اليوم وقدم لنا نموذجا مبهراً من نظافة اليد ونزاهة الزمة وشرف الغاية، ذلك الوزير الذي كان ينزل إلى الشارع منفردا وحيدا بلا حراس أو مرافقين فيركب الترام مع الناس كأي مواطن عادي تماما كما ديفيد كاميرون في انجلترا. نعم حدث هذا منذ أكثر من ٦٥ عامًا في العهد الملكي على يد الوزير الوطني المناضل الشريف المؤرخ والأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي الذي تولى وزارة التموين في وزارة حسين سري

باشا التي كلفها الملك بعد استقالة حكومة ابراهيم عبد الهادي.. تولى الرافعي وزارة التموين وفي يومه الأول جمع الموظفين كباراً وصغاراً وأعلن لهم بقوله: (لقد دخلت الوزارة لأول مرة وأنا لا أملك إلا سمعتي وماضي الطويل وقد جعلت سمعتي وتاريخي بين أيديكم وديعة، فأنتظر منكم أن تحافظوا على هذه الوديعة) وهي الكلمات الرقيقة المعبرة التي كان لها الدوي الكبير والتأثير العميق على المستمعين الذين تعاونوا معه ولم يخذلوه ،وكانوا حلفاءه في تحقيق النجاح، لأنهم لم يرو منه في يوم من الأيام إلا أنه يريد الحق ويرعى مصالح الناس ولم يسع أبداً في الحصول لنفسه على مغنم لا في الحاضر ولا في المستقبل..!

أدار الرافعي في الأسبوع وزارته بنجاح واقتدار وخبرة ودراية، وتبين له أن الاستقامة في إدارة شؤون أي وزارة مع الكفاءة حتى المتوسطة وغير القوية والمتكاملة هي الكفيلة بإصلاح الأداة الحكومية التي تحقق مصالح البلاد، فالوزير المستقيم هو الذي يشيع روح الاستقامة في نفوس موظفيه والعاملين معه..

لم يقبل الرافعي يوماً وساطة من قريب أو صديق ومن جاءه في صحبة أحدهم فغنه لا يعطيه إلا حقه ولا يلتفت لوساطته أو يعبأ بها، ولم يعين أحداً من أقاربه في الوزارة كما يفعل الكثيرون ولم يُعط أحداً منهم درجة استثنائية.. كما لم يؤثر فيه المنصب ولم تغير الوزارة من طباعه وسلوكه ولم يكن يلتفت إلى هذه التحايا البالغة والتشريفات والتعظيمات التي يقابل بها في كل مكان من ذهابه وإيابه، ولم يكن يسافر في ديوان خاص وإنما تكفيه العربة المكيفة بالهواء، ولم يغير عاداته في

التريض سيراً على قدمه في طريق الكورنيش في الاسكندرية بعد غروب الشمس وكان الجندي المكلف بحراسته يلح عليه أن يصحبه ولو من بعيد، لكنه كان يرفض ويأمره بأن لا يرافقه لا من قريب ولا بعيد حتى يتحرر من مظاهر الفخفخة الوزارية، ويركب ترام الرمل في بعض تنقلاته ويأمر سيارة الوزارة بالانصراف ويندهش أقاربه ومعارفه حينما يلمحونه في هذا المشهد - وزير يركب الترام؟! - تصرف غير معهود أو مقبول حتى أن أحد مراسلي الكتلة رآه مرة على هذه الحال فاعتقد أن في الجو أزمة وزارية، وأن الوزارة وشيكة السقوط وأبرق إلى صحيفته بذلك، لأنه لم يستطع أن يتصور أن وزيراً يركب الترام إلا إذا كان يستعد للاستقالة.. ولم يلحظ عليه جيرانه وأقاربه ومعارفه أن شيئاً تغير فيه من تصرفاته وأخلاقه وسلوكه بعد الوزارة بالرغم من مظاهر العناية والرعاية الحكومية التي تحيط منزله.

وكيف لا يكون الرافعي بهذه الصورة وهو من تلاميذ الزعيم الكبير مصطفى كامل ومن بعده صاحبه محمد فريد، وأحد أعلام الحزب الوطني المناضلين المدافعين عن القضايا الوطنية، وكان مثالاً عالياً ونادراً للوزير النزيه الشريف والمسؤول العفيف المخلص الذي لو رزقنا مثله اليوم لزالت كثيراً من مشكلات مصر وآلام أبنائها الذين يحلمون بالعيش الكريم والحياة الهانئة.. ولكن أنى لهم ذلك.. وهذا المنصب اللعين صار حكراً على النصابين والأفاقين واللصوص ولا يجلس على كرسيه إلا الخونة والمستهترين والأنانيين والفاشلين.

ما رأينا مثله

ماذا بك لو سألتك يوما هل رأيت رجلا من الناس كان القمة والقدوة والأسوة لمن حوله في الحياة؟

أعتقد أن الجواب في هذه الأيام عزيز نادر ندرة الكبريت الأحمر.

مازلت أتذكر وترن في أذني كلمة أحد أقاربي وهو يتحدث عن حماه والد زوجته، بقوله: هذا الرجل لم أر مثله في حياتي.

ويا لها من قولة مؤثرة تبعث الابهار في القلب، لأن مثل هذه الكلمة تجمع خير الدنيا والأخرة، وأفضل تعبير بلاغي عن صلاح هذا البشري المشار إليه، ولعل مثل هذه القدوات ترد سفه السافهين ممن يصرون على أن الخطأ والمعصية والذنب قرين البشر كل البشر، فمهما بلغ صلاحهم يستبعدون طهارتهم ونقاءهم بحجة أنهم بشر، ونسي هؤلاء الضلال أن الله أنزل على رسوله كتاب هداية ونور للعالمين، من اتبعه لا يضل ولا يخذى، وإن كان أمر الهداية والتقوى والصلاح عسيرا، لما أمر بها الله تعالى ودعا إليها وحث المؤمنين على طريقها.

وحينما تقرأ في حياة السلف الصالح، تجدهم يكررون مثل هذه الجملة التي كررها ذلك المتحدث عن صهره، لقد قالوا في أعلام كبار ملأوا طباق الأرض علما وزهدا وخلقا وإصلاحا، مما تعطيك انطباعا

بمدى تدهور العصر الذي نعيش فيه وتكالب الدنيا على همم الناس، حتى صار وجود مثل هذه القدوات عزيز المنال، لكنه ليس بالمحال، لو اجتهد العبد وتوجهت نيته خالصة إلى ربه، وتعلق قلبه بمنهجه وكتابه.

وهنا نسيح مع بعض هذه الأقوال المنقولة التي توجد بقراءتها وسماعها في نفوسنا همة كبيرة نحو الخير والعمل لتحقيق القدوة الصالحة، وتحفيز النفس على الإحسان إلى الناس علنا نجد يوما من يقول عنا: لم أر مثله، أو لم يرى هو مثل نفسه.

وقال عبيد بن جناد: قال عطاء بن مسلم: يا عبيد أرأيت عبد الله بن المبارك؟ قلت نعم ما رأيت مثله ولا يرى مثله.

وقال عبد الرحمن بن عبيد: كنا عند الفضيل بن عياض فنعي إليه ابن المبارك فقال: رحمه الله أما أنه ما خلف بعده مثله.

وقال يحيى بن معين: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل!

وذكر الذهبيُ شيخَه ابنَ تيمية فأثنى على علمه وصلاحه وجهاده ثم قال: فلو حلفتُ بين الركن والمقام، لحلفتُ بأني ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه.

وقال أبو الحجاج المزي: ما رأيتُ مثل ابن تيمية، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيتُ أحدًا أعلمَ بكتاب الله وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أتبع لهما منه.

وقال الإمام الفقيه ابنُ دقيقِ العيد عنه: ما ظَنَنّتُ أنَّ اللهَ بِقِيَ يَخْلُقُ مِثْلَك.

وقال الحافظ المِزّي عنه: ما رَأيتُ مِثْلَهُ وَلا رَأى هُوَ مِثْلَ نَفْسِهِ، ومَا رأيت أحداً أَعْلَمَ بكتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، ولا أَتْبَعَ لَهُمَا مِنْه.

وقال ابن راهويه: ما رأيت مثل يحيى بن يحيى، وما رأى مثل نفسه.

وقال أحمد بن حنبل: ما رأى يحيى بن يحيى مثل نفسه، وما رأى الناس مثله.

وكان الحاكم أبو عبد الله يقول: ما رأي الدارقطني مثل نفسه.

وقيل في القشيري: شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة مقصود سالكي الطريقة وبندار الحقيقة وعين السعادة وقطب السيادة لم ير مثل نفسه ولا رأى الراؤون مثله في كماله وبراعة.

وقال ابن عيينة: ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري، ولا رأى هو مثل نفسه.

وقال أبو ثور الفقيه: ما رأيت مثل الشافعي ولا رأى مثل نفسه.

وقال جعفر بن محمد المستغفري عن البخاري: لو جاز لي لفضلته على من لقي من مشايخه، ولقلت: ما رأى بعينه مثل نفسه.

وقال عمر بن عبد العزيز يوما لابن أبي مليكة: صف لنا عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جِلدا قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثله، ولا رأيت نفسا ركبت بين جنبين مثل نفسه.

وسئل أحمد بن عبد الله الحافظ؛ عن حال الطبراني وسيرته وحفظه، فقال: لم ير الطبراني مثل نفسه.

والقائمة طويلة طويلة بأعداد هائلة من القدوات الصالحة التي قيل عنها لم نر مثلها، ولعلنا نشير هنا إلى أن الأمة الإسلامية بمنهجها الرباني العظيم، هي الأمة الوحيدة التي استطاعت أن تقدم هذه النماذج العظمية، التي نالت البطولة في ميدان الانتصار على النفس، وأوشكت أن تبلغ حد الكمال.

مصيرنا مع الأخلاق

وقفت طويلا أمام وصية عمر بن الخطاب للجيش الذي ذهب لهدم كسرى وتقويض عرش فارس، لقد قال لهم في رسالته: " أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب.

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصي، منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإذا استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا.

لقد كان عمر يدرك أن التمسك بالقيم والأخلاق والطاعة والعبادة سبب النصر والذخر والاعتلاء والتقدم والقوة.

وهكذا الاخلاق دوما مبعث كل تطور ونهوض وقد صاغ شوقي هذا المعنى في قوله:

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا** فليس وراءها للعز ركن.

وقال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ** فأقم عليهم مأتما وعويلا

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ** فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

كثيرون من الناس رفعتهم أخلاقهم، وارتقوا من المراكز والمناصب والمواقع مالم يكن يحلموا به بفضل أخلاقهم.

مواقع كثيرة في الدنيا قد لا تسعفك إليها قدراتك وكفاءاتك بقدر ما تصيبها وتزلل لك ركوبها أخلاقك وتقديرك للقيم.

بل هناك بعضهم من تسببت أخلاقه في نجاته من الموت والهلاك، وقصة أبي يزيد البسطامي معلومة معروفة حينما رفض أن يكذب في جوابه على قاطع الطريق الذي سأله ما معك من المال.

إن حسن الخلق والتأكيد عليه يسهم في شيوع التسامح والمحبة بين الشعوب والمجتمعات.

الطب مهنة راقية ولابد فيها من الأخلاق والاتزان فالطبيب يعرف الكثير من أسرار المرضى ويطلع على خصائصهم أو بمعنى أدق أشياء كثيرة من عيوبهم، ولو أنه كان شخصا خفيف العقل طائش التقدير، لنشر وأذاع ما يحب الناس ستره ويتأذون من إشاعته، واطلاع من حولهم عليه.

سمعت عن طبيب كلما جاءته مريضة صمم وأصر أن تبصره من عورتها ومفاتنها حتى ينظر إليها ويغذي منها نظره ويروي شهوته،

وهو بهذا غير مؤتمن على أعراض الناس ويخون مهنته ويمينه ودينه، ويستغل مهنته.

ما أروع هذا الطبيب الفرنسي رينيه لاينك حينما كان في العام ١٨١٦م وأتته شابة مريضة، وشعر أن لديها مشكلة في القلب وأراد فحصها، لكن كانت أخلاقه تمنعه من أن يفعل طريقته المعتادة مع المرضى، وهي أن يضع أذنه على الصدر ليسمع ضربات القلب ويشخّصها، ففكر في طريقة يستطيع بها حل المسألة، والتفت حوله وقرر أن يأخذ ورقة ويلفها حتى تكون مثل الأنبوبة (أو مثل الناي، ذلك أنه أيضاً كان يعزف الموسيقى)، وبعدها وضع طرفاً على صدرها واستمع لضربات القلب من الطرف الآخر، وابتهج الطبيب بعدها قائلاً للمجتمع الطبي: "كم تفاجأت وسعدت! لقد صرت أسمع ضربات القلب أوضح من ذي قبل"، وعكف على صناعة شيء من الخشب المجوف، ولما انتهى وإذا به أشهر اختراع طبي إلى اليوم، "السماعة" بدأت تنتشر بين الأطباء، إلا أن البعض عارضها، منهم طبيب أميركي قال ساخطاً: "لدينا آذان تسمع جيداً، فلماذا نسمع بغيرها؟"، إلا أن الاختراع الجديد نال استحسان المجتمع الطبي لوضوح الأصوات التي يمررها للأذن وهو أمر أتاح للأطباء أن يسمعوا أصواتاً أدق من ذي قبل، ويشخصوا أمراضاً لم يكونوا ينتبهون لها بالسمع المجرد، وهكذا فُتِحت نافذة جديدة في الطب.

أرأيت كيف تقود الأخلاق للنصر والفتح والتقدم والفلاح

قهر المشاعر

إليك يا قارئي الحبيب حديث آخر من أحاديث الإنسانية، التي والله ما أمل ذكرها والتنويه بها، حتى نشعر بضرورتها في هذه الأيام النحسات التي تطالعنا بأبشع الصور التي يرتادها البشر حينما يُعميهم الحقد، فيهوي بهم في مدارك الدناءة والانحطاط مع غياب الضمير والذوق والأدب والترفع والنبل.

إنني أتحدث عن النقد الأدبي، ومهما كان هذا النقد كشفًا للعوار الفني، فإنه مازال محكوما بكلمة الأدبي، أي أنه أدب وخلق قبل أن يكون نقد وتقريع.

انظر أخي إلى أصحاب العلل الجسمانية أو النفسية، فهذا كما وصف القرآن، أعرج وهذا أعمى وذاك أحول وغيرهم مقعد، هل تتخيل أن تكون هذه العلل التي نشد على يد أصحابها وندعو الله لهم بالثبات والمعونة، بل وندعو الله تعالى أن يعافينا مما ابتلاهم به، هل تتخيل أن تكون هذه العلل مسار نقد لناقد أو تعيير من صاحب قلم؟!

الله أكبر

ما أفجع المصاب وما أبشع النقد، وما أقبح القلم.

منذ أيام كنت وصديقي العَلم المستشار (بهاء المري) نتحدث ونكاد نبكي دمًا حينما رأينا ناقدًا أو كاتبا قُد قلبه من صخر وهو يُعيِّر شاعرًا موهوبا بِعِلَّته الجسدية، كيدا له ومغايظة.

وكان صديقنا القاضي البهاء يُعلق ويقول: كيف تجرَّد من الإنسانية، وكيف سقط إلى هذا الحد؟ كيف سوَّلت له نفسه أن يُعيِّر خَصمه بَعِلَّته؟

وكنت أشعر بهذه الكلمات فلا يمكن أبدًا أن يكون على شيء من الإنسانية من يرتكب مثل هذه الحماقة، ووالله إن العداء قد يبلغ بي مع خصومي مبلغه، وقد يكون هذا الخَصم ذو عِلَّة، فلا أسمح لنفسي أبدًا أن تتجرأ فتُعيِّره بهذه العِلَّة، ومهما كان جبروته عليَّ، فإن قلمي وربي لا ينجرف أبدًا إلى هذا المشهد الساقط بكل مراتب السقوط الأخلاقي والقيمي والنفسي.

ولقد وضعتني الحياة في كثير من التجارب مع بعض هؤلاء، فوجدت ذلك النبل من نفسي والحمد لله، وهو والله ليس مدحًا لذاتي بقدر ما هو استنكار لهذا المنزلق الخطير الرخيص.

ألا سُحقًا لهذه الأقلام التي تتحول إلى سِياط لا تعرف معنى الرحمة بالناس.

ولعنة الله على هذا الأدب حينما يتحول صاحبه إلى هذا الكفور الخبيث، الذي يقهر أحاسيس الناس بعجزهم الذي قدره الله عليهم.

يمكن لك أن تسُبه وتشتمه، أو تتهمه أي اتهام، أو تصفه بأي وصف، لكن أن تُعيره بعِلَّته وتتعالى عليه بعَجزه، فذاك وربي طغيان ما بعده طغيان.

أذكر وأنا طفل صغير كان يلاعبني صديق أقل منِّي سنًا يعاني شللا في قدمه، فاستقويت عليه لكبر سنِّي، ولا أخفيكم أنني يومها كنت طفلا طاغية، ولما شكا أهله أمري إلى أبي، إذا بالدنيا تقوم ولا تقعد، وتكاد تقوم المشانق وتُنصب المقاصل، وإذا بعمِي وأبنائه ينقلبون عليَّ وهم يصيحون بي، كيف تفعل ذلك بمسكين يعاني هذا الحال.؟

لم يكن عقاب أبي لي وهذا النكران العائلي، إلا تنبيها لي على فداحة ما صنعت، وجُرم ما فعلت، ليطبعوا مع الزمان ذلك الموقف الأخلاقي الذي لا أنساه.

وأنا أمام هذا المشهد الوعر، ما كنت أظن أبدا أن يتدنَّى لهذا الإسفاف أديب كبير من عظماء الأدب في تاريخنا الثقافي، وصاحبنا الذي ذكرته ابتداء إن فعل ذلك فلا يلام بالقدر الذي يلام عليه هذا العظيم الذي سأذكر لكم فعله واسمه الآن.

هل تتخيل أن يكون الأستاذ المازني، وهو من أرق الأدباء وأنبلهم، هل تتخيل أن يكون مثله يوما كهؤلاء المعيرون؟

نعم لقد جرته المعركة مع الدكتور (طه حسين) أن يعيره بعلته، ويذكر له بالفم الصريح والتعبير القبيح، أنه أعمى، بل لم يذكرها مرة عابرة، وإنما كررها وأمعن فيها إلى حد مستغرب يثير النكران.

ففي كتابه (قبض الريح) ينقد أسلوب الدكتور طه نقدًا أدبيًا، ثم يفاجئ الجمهور بأن أظهر عيوب الدكتور طه في أسلوبه الأدبي، هو التكرار والحشو، وما هو منه بسبيل، ثم يقول: وعلة ذلك راجعة إلى أن الدكتور طه يُملي ولا يراجع، وإذا به ينساق في قبيح كلامه، حتى يتطرق إلى علة الرجل المرضية الزمنية، وأن عماه قد آثر العمى أيضا على أسلوبه، وأخذ يكرر ذلك تصريحًا وتلميحًا، بل أوغل في ذلك حينما عقد مقارنة بين عمى بشار بن برد وأبي العلاء وعمى طه حسين، وهو أمر ما كان أرفعه عن ذكره.

لقد نسي المازني معنى المروءة أمام عداء القلم، ولعله كان في سكرة أذهبت رشده، فإن أعظم ما في طه حسين، هو هذه العلة التي أورثته هذه الهمة العظيمة، ففعل وحقق مالم يستطع كثير من المبصرين تحقيقه، فتبوأ بما أنتجته فيه هذه العلة من همة جسورة، عمادة الأدب العربي في زمنه.

يقال: إن الطبعات الأخيرة لكتاب المازني قامت دار الشعب للنشر بحذف هذا التعيير الرخيص وما ذكره الكاتب عن هذه الآفة ودونه في الطبعة الأولى.. وكان عليه أن يتذكر ما عده النقاد من أشراط

النقد أن الإنسانية شرط في سموه، ومن فقدها لا يترقى أبدا لأن يكون ناقدا.

إنني لا أنتقد الأستاذ المازني، وإنما أدرك تماما أنها نزوة شيطانية شذت عن مسار الإنسانية وقاده فيها كما قيل: شيطان النقد، لكنه مع الدكتور طه كانت له مواقف كثيرة مناصرة منصفة.

بقي أن تعلم أن المازني نفسه كان من أصحاب العلل، فقد كان أعرجًا، فهل ما كان يفعله سخرية واستهزاء ومصارحة كما عهدنا عليه في أسلوبه، ولكن مهما كان ومهما كان ما به، كيف يتورط قلمه في هذا المشهد الرخيص؟

يا لها من أخلاق

مع صفحة جديدة من صفحات الإنصاف، وإن شئت فقل صفحات المروءة والأخلاق والإنسانية والضمير والنزاهة والشهامة.

ننظر إلى تلك الصفحات التي تحمل إلينا هذه الأخبار من زمن غابر، وبين ما نجد من عصرنا اليوم لنجد بونا شاسعا بين أخلاق الناس، وطبيعة الزعماء، وديدن الأحزاب المتصارعة.

نتعلم من عصرنا اليوم طبيعة الصراعات السياسية، والتي تتحول إلى عداء وخصومة، لا مثيل لها في درجات البغض والكراهية، حتى أن أحدهم يمكن أن يتحالف مع الشيطان، حتى يغلب خصمه ويمحو ذكره، السياسة في هذه الأيام، خرقاء لا تتمتع بروح الفروسية وسمات الشهامة، ونجد في أتونها أول تلك التهم التي يجهد الخصوم في اتهام بعضهم بعضا بها، هو الخيانة للوطن والعمالة مع المتآمرين عليه.

بل نرى من هؤلاء الساسة من يدعو لسجن خصومه ووأدهم وقتلهم، ويرى أن إزاحتهم من الحياة، من أوجب الأعمال الوطنية، بل والإنسانية.

لكن الساسة قديما كانوا على أخلاق أخرى غير هذه الأخلاق الوضيعة المنكرة، التي لا يمكن لأصحابها أن يقوم على أيديهم وطن، أو تحيا بهم نهضة، أو تعز برايتهم أمة.

فالذي يبيح لنفسه قمع الناس والغدر بهم، لا تتوفر لديه معالم البناء، والتي أولها الصدق والمروءة.

كان هناك صراع كبير بين حزبي الأمة ممثلا في احمد لطفي السيد، والحزب الوطني ممثلا في مصطفى كامل.

فقد كان لكل منهما أسلوبه في التعامل مع المحتل والتي تختلف عن صاحبه.

ومع الأيام في مستجدات السياسة تأججت الخصومة السياسية بين الحزبين والصحيفتين والرجلين، لقد كانت خصومة حادة عنيفة، فقد كان كلا منهما يكيل لصاحب أحد الكلمات وأنكى التهم التي تعجز عن حملها الجبال، ولكنها ورغم شدتها لم تكن تخرج عن نطاق الانصاف والرجولة، أو تنحدر لتلك الوعور المجردة من الأخلاق.. وكما كانت الخصومة تشتد بينهما على الورق، فقد كانت عنيفة لا تفرق عنها في الخطب الساخنة الرنانة.

كان لطفي كما قيل: السيد هادئا عقلانيا متوهج العقل، بينما كان مصطفى كاملا عاطفيا متوهج العاطفة، ولم يتوقف هذا الخلاف والسجال بين الرجلين يوما واحدا.

كان الحزب الوطني - بزعامة مصطفى كامل - يطالب بالجلاء، ويهاجم الاحتلال، ويتبع سياسة المعاندة مع المحتلين على صفحات «اللواء» بينما كان و حزب الأمة، يطالب بالإصلاح التدريجي

ويسالم الانجليز، ويطالب بأن تنفصل مصر عن تركيا، وكان المعبر عن كل هذه الآراء هو«لطفى السيد» فيلسوفه ورئيس تحرير صحيفته «الجريدة».

وفي قمة تلك الخصومة، مات مصطفى كامل، وكان قد نجح قبل وفاته، وبعد نضال شاق، في استصدار قرار بالعفو عن المحكوم عليهم في قضية دنشواي: لهذا جاءت وفاته المفاجئة صدمة قاسية للشعب، وحزنت عليه الأمة وهو في أزهى شبابه لم يتخط الرابعة والثلاثين.

وكان متوقعا أن ما كان بينه وبين لطفى السيد من خصومة سياسية، يمكن أن تقصر على ما يؤديه على الواجب الانساني في رثائه، أو مجاملة أسرته، ومجاملة مصر في فقده، ويقول د. هيكل في مذكراته: أنه حرص على أن يقف من أستاذه شخصيا على حقيقة رأيه في هذه الفاجعة القومية، فذهب غداة مشهد الزعيم الشاب الى سراي البارودي – مقر الجريدة – وصعد السلم يريد أن يستأذن على لطفى السيد كعادته، وكان عجبه شديدا حين رأى باب حجرته مفتوحا على مصراعيه، ورأى حاجبه لا يمنع أحدا عن الدخول، ودخل الحجرة فرأى بها عددا كبيرا غير مألوف من الزوار الذين أحاطوا بالمنضدة الطويلة الممتدة أمام مقعد لطفى، وكان عجبه اشد من ذلك، حين رأى استاذه وقد ارتدى السواد، واشتمل عنقه برباط أسود كبير، ووقف وكانه فجع في أعز الناس عليه واقربهم إليه.

وقف هيكل مبهوتا أمام منظر لم يكن يتوقعه، ثم انسحب ولم يرد أن يطيل السماع لحديث لم يكن يألفه من قبل، لأنه لم يكن حديث المنطق الذي تعوده من لطفي، بل كان حديث مأتم، تجرى فيه العواطف أدمعا أو ما يشبه الأدمع، فلما ظهرت الجريدة بعد ذلك اليوم، كان لطفى السيد أول داع لإقامة تمثال لمصطفي كامل، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض، وأثار هذا عجب ده هيكل، لم يسعفه منطقه الشاب بما يرضاه عقله تفسيرًا لما رأى وما سمع، ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق المتوقع بين الخصمين هذا المبلغ.. فكتم ما في نفسه حتى أفضى به إلىَّ أستاذه لطفي السيد بعد أيام فابتسم الأستاذ قائلا له: إنه ما زال صغيرا لا يقدر مثل هذه المواقف.

إنها الإنسانية وإن شئت فقل الأخلاق، وإن شئت فقل الرجولة والإنصاف والشهامة، التي تتغاضى عن كل الخصومات في المحنة الإنسانية، ويا له من درس عميق في الفضيلة لا يجب أن يتمثله أصحاب السياسة فقط، وإنما كل إنسان حين يصعب عليه أن يمثل للقيم في وقت الفواجع، التي تلغي وتحذف معها أي شقاق أو خلاف أو عداء.

تعلم أن تستمع

هل هو طبع، أم تربية، أم مرض نفسي يسعى إلى إبراز الذات، ولفت أنظار الناس؟ قد يكون هذا كله كائنا.

لماذا يحب كثير من الناس أن يعلو مقامهم وحده على الساحة، ولا يكونون على قدر من الراحة إذا صمتوا في مجلس أو لقاء، حتى نرى ألسنتهم تنطلق بالحديث الذي لا يكف ولا ينتهي، ليظل صوتهم وحده هو المدوي، ورأيهم وحده هو البارز الظاهر؟!

أعجب كثيرًا بهذا الأدب الجم فيمن يجعل الصمت خُلقه وديدنه في المجالس والمنتديات، لا يكثر الثرثرة، ولا يُجهد لسانه، إلا إذا طُلب منه الحديث، حتى وإن طلب منه، فإنه يُعبر بقدر المقل، الذي يحفظ سمته ومكانته وميزان شخصيته.

المشكلة أن بعض الناس قد يتخطى مرض الإعجاب بالنفس وحب الظهور والإصرار على شغل الأخرين بحديثه وحده، ليقع في مرض آخر أكثر وعورة ورداءة، وهو حينما يتخيل أن ما لديه هو العلم والفهم الذي لم يهتد إليه أنداده وأقرانه، فهو مميز وعبقري وفذ، ومن ثم يسوقه هذا الظن الواهم للكلام والثرثرة بدون توقف.

كنت في ندوة بديوانية المهيدب في مدينة جدة، وكان اللقاء بمناسبة رحيل الدكتور عبد الرحمن السميط رحمه الله، وجمع اللقاء كثيرين ممن عاملوا الشيخ السميط، أو عملوا معه وشاركوه في عمله

الخيري ورافقوه في مسيرة حياته، وتقدم أحد الصحفيين كتب عنه مقالا، وأخذ يلقيه من ورقة على الحاضرين، وتخطي صاحبنا الوقت المسموح له، وحاول مدير الجلسة أن يشير إليه وينبهه إلى انتهاء الوقت، لكن الرجل مسترسل في الحديث، قالوا له: انتهى الوقت، وهو مسترسل في الالقاء غير عابئ بتنبيه أو توقيف، حتى كان المشهد قمة في السفاهة وقلة الاحترام التي ظهر فيها المتحدث، لقد ظل يقرأ حتى أوشك من ينهاه أن يقوم إليه ويكتم فمه بيديه حتى يُخرسه.

قد تظن أنك تمتلك الذهب، لكن غيرك قد يملك الجوهر والكنوز الكبيرة.

فعطاء الله ليس حكرًا عليك، أعط غيرك الفرصة وتعلم أن تستمع للآخرين.

كنا نشاهد مذيع البرامج الدينية في التلفزيون المصري الراحل الاستاذ (محمد عبد العزيز) رحمه الله وهو يتحدث أكثر من الضيف الذي استضافه، وكانت الحلقة تستفز المشاهد، إذ يخطف المذيع الكلمة من لسان الضيف، وإذا شرع الضيف في سرد فكرة من الأفكار، بادره الراحل ليخطفها من نطقه، مما قد يصيب العالم بشلل في استرسال الفكرة وفساد الكلام، وكنت أرى امتعاض والدي رحمه الله من هذا التحليق والترصد لأفكار الضيف، ويتهمه بالسخف وقلة الذوق..

كان الرجل يريد أن يتكلم أكثر من الضيف، ولا يعطيه فرصة ليطرح فكره ويظهر علمه ورأيه، وكأنه يريد أن يقول له: أنا أعلم وأفقه منك، وأنك لا تأتي بالغرائب فكل ما تقوله أنا أعرفه وزيادة، وهو

الحال الذي كنا نرى نقيضه مع الأستاذ النير والإعلامي القدير (تهامي منتصر) الذي كان يُعطي الضيف فرصته، ويفرغ له المساحة اللازمة ليقول ويحكي ويُبهر ويُبدع، والأستاذ تهامي من هذا النوع من الاعلاميين الذين كنت تشعر في طريقة عرضهم للضيف والتعامل معه، بالأدب الجم، والخلق الرفيق، والتقدير البالغ لقيمة العالم والمفكر.

رأيت يومًا أستاذنا الدكتور صالح السامرائي رئيس المركز الإسلامي في اليابان، يُداعب صديقًا لنا فيه فكر وعلم، وقد قال له: من يراك ولا يعرفك يقول عنك بأنك هلفوت، وأنت في ذاتك علم تركع له العقول، وقيمة كبرى لا تدانيها قيمة.. وهذا مما يشير لأدب المتحدث عنه لأنه دوما يلتزم الصمت، ولا يصدع العالم من حوله ويطالبه أن يعرف مكانته ويدرك قيمته، بل حتى لا يحرص من مظهره أن يعبر عن ذلك فهو زاهد لا يشغل باله بالناس وأقوالهم.

والأديب الكبير أحمد أمين كان يرثي أحد الأدباء الكبار وهو (علي بك فوزي) وكان مما رصد في أخلاقه هذه الخلة الذهبية التي لا يرقاها إلا المهذبون من تلقوا حظًا وافرًا من التربية الروحية والأخلاقية.

قال عنه أحمد أمين: " لم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير يجيد العربية إجادة قل ان يكون له فيها نظير، ويتكلم اللغات كلها كأداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما يقف فيها، هذا إلى نصيحة في النقد وقوة في الملاحظة وشخصية آثرة بارزة، لا

تخضع لأي مؤلف مهما عظم، ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء، فهو ذهب خالص غطي بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتصل على باطن نفسه."

فكأنه أمِّيٌّ غبي جاهل بكل شيء.!

من يستطيع عمل هذا إلا أهل النبل والأخلاق؟!

ومن هنا نستطيع أن نستنتج استنتاجا مهما ونيرا وجيدًا وهو، أن الانسان الذكي الماهر الواعي، هو من يصمت ليسمع ويتعلم، هو من يعطي فرصة للغير، ليرى من بعيد إبداعات الأخرين وآراءهم، فيأخذ بأميزها، وينهل من غرائبها، ويرتب بين دقائقها ليخلص إلى الإفادة المرجوة.

ليست شطارة أو نباهة أن تتحذلق بالكلام وتسابق الأخرين في الالقاء، وتأخذ المجالس لحسابك وحدك، وتزاحم أهل الفنون لتثبت لهم وأمامهم ذاتك وأنك أجدر وأعلم وأمكن.

اصمت رحمك الله وتعلم فن الصمت حتى تستفيد، وحتى تظلك سحابة النبل والأخلاق فتكون في سمتك لا يطالك فيه إلا أبناء الملوك.

تطييب الخاطر

كثيرا ما نكتب وكثيرا ما نصول ونجول في ميادين النقاش، فتحدث المصادمات، وتكثر المشاحنات، ويتولد الشقاق، وتثار النفوس وتتعكر الصدور.

ويظل المرء يغلي من الهم والكمد، جراء جدال قد اصطلى بناره، ونقاش قد احتدم أواره، فلا يترك للنفس عافية ولا في البال راحة، وهو ألم وجراح تفوق وخز السنان وطعن السيوف.

وتنتقل هذه النقاشات في غالبها من الموضوعية والطرح العلمي إلى التجريح الشخصي، والنيل من ذوات المتحاورين، وقد تتحول إلى سباب وإهانات وشتائم ووسم بالجهل الغباوة والتبلد.

وإذا لم يكن هناك أدب وخشية من الله، تطورت الأمور إلى ما لا يحمد عقباه.

لكن أسوأ الأحوال التي يقدر وبالها ويعاني مرارتها أصحاب المشاعر الرقيقة، والقلوب الحية، حينما يرون من تأذت أحاسيسه منهم، واكتوت مشاعره من صلابتهم وعنفهم، فإذا بهم يسارعون إلى تطييب خاطره، واسترضاء مشاعره، وإذالة همه ومحو كمده، وانتشاله من وحل الأسى ومفازة الضيق، الذي يقض مضجعه، ويذهب سروره، ويضيق عليه، ويفسد راحته في الحياة.

ولقد كان القسطلاني صاحب إرشاد الساري واحدا من هؤلاء العظام الذين حفروا اسمهم عاليا في فضيلة تطييب الخاطر، فكان مضرب الأمثال وأغنية الأجيال.

كان القسطلاني من جملة هؤلاء العلماء الذين كانت بينهم وبين الحافظ السيوطي عداوة وغيرة ومشاحة واتهام وصراع علمي محتدم الأوار، تدرج إلى التقاذف التجريح والنيل من الذمم والهمم.

لقد تنبه القسطلاني إلى خطئه في حق السيوطي، وما وجهه من سهام جارحة واتهامات باطلة، وما واجهه به من خصومات ظالمة، فأراد أن يسترضي العالم الكبير الذي كان قد لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، من شدة ما لقي من عنتهم، فتوجه حافيا إلى مسكن الشيخ السيوطي في جزيرة الروضة، قاطعا المسافة الطويلة بين القاهرة وجزيرة المقياس وهو على هذه الحال، ودق على السيوطى بابه، فقال للطارق: من أنت؟ فقال: أنا القسطلاني جئت إليك حافيا ليطيب خاطرك. ولكن السيوطي الذي كان انقطع عن الناس جميعا وتفرغ للكتابة والتأليف، لم يفتح له الباب واكتفى بالرد عليه قائلا: قد طاب.

ولعلك هنا قد تدين السيوطي يفي موقفه ممن جاء معتذرا إليه، ولكن عليك أن تعذره، فربما كان الجرح كبيرا، أو ربما أنه أقسم على نفسه ألا يلتقي أحدا، أو ربما لو رأى القسطلاني لتذكر ما يؤلم نفسه.. أعذار كثيرة يمكن أن نلتمسها له.

ولكن الذي لا يغيب عنا سمو القسطلاني، فلله دره، وما أرقى نفسه وأسلم ضميره وأرق مشاعره، وخشيته لربه.

يذل نفسه بهذه الصورة التي جعلته وهو العالم الكبير أن يمشي حافيا حتى يكفر عن خطئه في حق ند له، لعله يرضى ويعفو ويغفر! فأي أخلاق هذه؟ ومن منا اليوم يرقى إلى هذا السلوك بمثل هذه الصورة المثالية.

ما أدعانا لنشر مواقف ومآثر الاعتذار، وتدريب هذا الجيل عليها، لترتوي بها طباعهم وأخلاقهم، فتتطور إلى ثقافة، تعبر عن نفوس راقية صافية، ترجو أن تلقى الله بقلب سليم، وتتبرأ من سمات الغل والحقد الذي يعمي القلوب.

كثيرون يرون في الاعتذار حطًا في القيمة وخلعا للمكانة، فيصمت أحدهم ويسكت، إذا ما بدا له خطأه في صاحبه، ويحاول أن ينسى ظلمه له وتطاوله عليه، وليس هذا من شيم الكرام الأماجد، فكيف يستقيم ضميرك ويرتاح بالك، وترضى قريحتك، وقد تسببت في أذى صاحبك، وقهر ندك، وتجلى لك بعد ذلك أنه على الحق، لماذا لا تجول وتصول في الاعتذار، كما كنت تجول وتصول في العدوان والاتهام؟

إن أصحاب النفوس السامية وحدهم من يدركون هذه المعاني.

قد تُناوش أحدهم وتبدأ في التطاول عليه واستفزازه، فإذا به يرد عليك، فترد عليه، وهكذا دواليك، حتى تتعقد الأمور وتصل إلى حد لا نهاية له من العداء والشحناء. وهوة سحيقة لا يمكن الرجوع معها أبدا إلى صفاء، فإذا ظهر بعد ذلك أن الحق معه في مسألة الخلاف التي تطورت إلى عداء، يجب عليك وقتها ألا يغيب عن بالك، أنك كنت السبب والبادئ والمعتدي والمستفز، ولا تسمح لنفسك أبدا أن تحتج بما نتج وبدر من صاحبك في ردوده عليك، فهذا من تغرير الشيطان بك، الذي يفزعه أن تلبي نفسك نداء الاعتذار لتكون من المحسنين.

ولله ما أجمل الشافعي رحمه الله الذي وعى وبصر وتفرد في فضيلة تطييب الخاطر، فيما فعله مع تلميذه يونس بن عبد الأعلى حينما اختلف معه، اختلف معه في مسألة، فقام "يونس" غاضبًا.. وترك الدرس، وذهب إلى بيته، فلما أقبل الليل... سمع "يونس" صوت طرق على باب منزله.

فقال يونس: مَن بالباب؟

قال الطارق: محمد بن إدريس فقال يونس: فتفكرت في كل من كان اسمه محمد بن إدريس إلّا الشافعي.

قال: فلما فتحت الباب، فوجئت بالإمام الشافعي.

فقال يا يونس، تجمعنا مئات المسائل وتفرقنا مسألة!!!

يا يونس، لا تحاول الانتصار في كل الاختلافات. فأحيانا "كسب القلوب" أولى من "كسب المواقف"... يا يونس، لا تهدم الجسور التي بنيتها وعبرتها، فربما تحتاجها للعودة يوما ما.

▪إكره "الخطأ" دائمًا... ولكن لا تكره "المُخطئ". ▪وأبغض "المعصية"... لكن سامح وارحم "العاصي".

يا يونس، انتقد "القول".. لكن احترم "القائل"... فإن مهمتنا هي أن نقضي على "المرض" لا على "المرضَى.

باب المسؤول

ما زلت إلى اليوم أقف متأملا مندهشًا أمام هذا النموذج الذي قدمه الإسلام للحاكم العادل، و(عمر) رضي الله عنه لم يكن مجرد حاكم أو أمير تسيد وتسلطن، بل كان رجلا خطيرًا أحدث زلزالا في الأرض، وهدم أعظم ممالك الوجود، وأطاح بامبراطورية الفرس، وهدد عرش روما، وأزال وجودها في الشرق.

وهو مع هذا المجد مفتوح بابه، سهل لقاءه، يأتيه الجميع في شكاتهم ومصالحهم دون حاجب أو مانع، بل ربما لو طلبه أحدهم لسار إليه بقدميه خادمًا ملبيًا.

ومن هنا كانت عظمة (عمر) وكان انتصاره ومجده.

رجل قبطي يظلمه الأمير وابنه في مصر، فيقطع مسافة السفر إلى الجزيرة يشكوهما إلى عمر، فتقوم الدنيا ولا تقعد ويرسل في طلب الأمير ليقتص منه ويأخذ حق القبطي.

ولعل الناس يتحاكون بعظمة الموقف في عدالة القصاص، ولكننا يجب أن يكون لنا نظر آخر وميزة أعمق، وهي سهولة الحصول على الحاكم، ويسر الوقوف أمامه، بلا صعوبة أو أو تعنت حاجب يمنعنا عنه حتى نُبلغه الشكاة.

نعم هذه هي العظمة الكبرى التي يجب أن نقف عليها في جلال هذا الموقف، وأمام هذا الزمان الذي يصعب عليك فيه أن تصل إلى مسؤول، أو تقف أمام ذو منصب أو جاه.

بل هل أقول لك: إن الأمة والشعب الذي يستطيع المواطن فيها أن يصل إلى المسؤول، فإنها علامة على عدالة هذه الأمة، وسيادة الحق فيها، وانتصار القانون في ربوعها.

والأمة التي يتعسر فيها أن ترى صاحب السلطة، فهي علامة على ضياع الحق وانعدام العدل.

تعرفت مؤخرًا إلى معالي المستشار (بهاء الدين المري) ومنذ أيام جمعني به لقاء في أحد الأندية الثقافية، وهو القاضي الذي لمسنا فيه تواضعًا جمًا، وأدبًا فريدًا، وإذا كان الرجل قد لفت انتباه الجماهير مؤخرًا بما كان من كلامه وأحكامه، فإن خلف هذه الأحكام والكلمات، سيرة رجل عادل، ومسؤول منصف، يجب الوقوف عليها وإدراك معالمها.

حكا لي معاليه: أنه وفي خلال عمله بالنيابة كان يصدر أوامره أن يظل بابه مفتوحًا للجميع، وألا يُمنع أحد من لقائه مهما كان طلبه وشكواه، أو لونه وشكله، وإذا حاول أحد الحجاب أن يفرض وصايته وسلطته في المنع والدخول، عنَّفه ولامَه وأغلظ له القول.

كانت أوامره المباشرة أن يدخل عليه كل من طلبه ليسمع منه ويقضي أمره.

الرجل كان يحكي هذا ويعتز بما صنع، وعندي أن مسؤولا يفرح وينتشي ويزهو بما كان من عدالته بين الناس، وحسن معاملته للجمهور، وتواضعه أمام الجميع، وسهولة الوصول إليه بلا حاجب أو حارس، لهو رجل يقدر قيمة العدل، ويسمو بجبر الخواطر، ويتيه في دنيا التواضع إلى حد نادر وجوده في هذا الزمان.

علمت أن الرجل ألف كتابا تحت عنوان (القضاء في الإسلام) ومن ثم ليس عجيبًا على من كتب هذه السطور أن يستلهم هذه الروح المتواضعة العادلة، ويبغض سلطة الحجاب الذين يقفون في وجه المضامين المغلوبين.

(المري) رجل مليء بالذكريات المبهرة، التي تجسد سيرة رجل مترفع متواضع، وفي جعبته كثير من مشاهد الفخار على المستوى الشخصي والعملي، ولو أنه وقف مع نفسه ودوَّنها، فسوف نرى صورة زاهية للمسؤول المستقيم، في زمن عزَّ فيه رؤية هذه الصورة، التي يصاحبها كثير من الدهشة والعجب.

أنا لا أحب الكتابة عن رجال السلطة والمشاهير، وأصحاب المناصب والنفوذ، حتى لا يظن ظان أننا نتزلف إليهم أو نسعى للقرب منهم بغية الإيواء إلى ركن عظيم.

لكننا نؤمن أن الأمة التي يسود فيها العدل، وتعلو فيها كلمة القانون، هي أمة سعيدة واعدة.

ونؤمن أن مسؤولا بهذه السمات، جدير أن نتحاكى عنه، ونمدح فعله، ونزكي خلقه، ونضرب به المثل في النزاهة والرقي.

بل نؤمن أن اليوم الذي يكف الناس فيه عن طلب الوساطة لإنجاز مهماتهم وتحقيق مطالبهم، هو يوم مشرق يعبر عن عدالة الدولة وسمو الأمة، ولن يكون هذا إلا إذا كان باب المسؤول مفتوحًا أمام الجميع، كما كان عمر قديمًا، وكما كان المري حديثًا.

اليابان العظيمة

أدرك يا بن عيسى وأدرك من قبله يا بن منتصر.. امرأة مصرية دهمتكم في حصونكم، وبددت جهودكم، وخيبت أملكم، وأثبتت للعالم كله أن المرأة المسلمة المحجبة بل والمنتقبة يمكن أن تبز الدنيا كلها علما وإبداعا وعبقرية، امرأة منتقبة أعلنت للدنيا أن النقاب لا يمكن أبدا أن يكون حجابا للعقل، وحجابا للنور، بل يمكن أن يكون العقل الذي يتخفى وراءه، من أبهر العلوم التي يتحاكى عنها العالم اليوم.

الدكتورة فاتن عبد السلام، من قرية ميت جرَّاح بمدينة المنصورة، حصلت على جائزة التميز في اليابان، كأفضل رسالة دكتوراه متعلقة بالهندسة الوراثية من جامعة طوكيو.. وجاءت رسالتها حول "استبدال الكيماويات التي تضر السلسلة الغذائية وصحة الإنسان بمادة أخرى غير مضرة ".

سبب حصولها على جائزة التميز وذلك لمقارنتها تأثير بعض الكيماويات وبين تلك المادة التي صنعتها إضافة إلى أنها تعمل في الوقت الحالي على تقنية تعديل الجينات

اليابان العظيمة التي تفوقنا بأزمان شاسعة في دنيا التطور والنهوض الحضاري، لم تطرد الباحثة المصرية من جامعاتها بسبب نقابها، ولم تصدق أو تقول بما يتقول به جهلة مصر من بني علمان: إن

الحجاب أو النقاب حجاب للعقل وضد العلم وهذا الهراء والخراء الذي يتغوطه أمثال هؤلاء الجهلة على حد تعبير صديقي الكاتب الباهر خالد الأصور.

هل يمكن للعقلاء اليوم أمام هذا النبأ الذي تهتز له دنيا العلم، أن يعتبروه تفوقا وإضافة وزينة للمرأة المصرية، فيقلبوا لها الدنيا حفاوة وتقديرا؟

أعتقد أن ذلك لن يحدث بسبب نقابها، الذي يسبب لهم حساسية مفرطة، فيتحولون كالجُرباء الذين يخمشون أجسادهم هرشا وقرصا وتجريحا حينما يرون منتقبة.

بل من المبهر أكثر وأكثر.. أن عمر السيدة التي حققت هذا الإنجاز ٢٧ سنة، وذلك يعني أنها عبقرية.

بل المدهش أكثر وأكثر أنها لم تعتمد في دراستها على منحة من الدولة أو بعثة تعليمية، وإنما كان إصرارها المهول فتحملت بذاتها تكاليف الدراسة والرسالة.

وهذه السيدة لا تتميز بروح العبقرية والتفتق العلمي وحده، بل إنها على المستوى الشخصي الذاتي، تتميز بقوة الإرادة وصلابة التحدي أمام كثير من المشكلات والعوائق ، وهو ما ظهر وتجلى عبر رحتها لهذا الفخر المشهود تقول فيما صرحت به عبر بعض الوسائل الإعلامية: " وفي البداية حصلت على المنحة المميزة، والتي تعد من المنح

الصعبة وبذلت مجهود كبير للحصول عليها، ولكن كان لزاما عليها أن تسافر في "السيمستر" الذي يلي حصولها للمنحة مباشرة، وبالتالي لن تستطيع السفر في هذا التوقيت لأنها لن تستطيع السفر وترك ابنها الرضيع وحيدا.

وأشارت إلى أنها اضطرت لدعم السفر وضاعت منها المنحة، وانتظرت بعد إتمام ابنها عامين إلا شهر، وخلال هذه الفترة بحثت عن منحة أخرى لكن لم تستطع لأن تجهيزات المنح تستغرق وقتا طويلا، فقررت السفر دون منحة وكانت خطوة صعبة للغاية للبنات."

من حق مصر والمصريين إذن أن يفتخروا بهذا النموذج وأن يترقى أسمى المراتب، وتهتم به الدولة والمسؤولين، حتى يكون نواة تقدم لوطننا.

وأنت أيها القارئ المبغض للنقاب اعلم أنني لا أدعوا له ولا أروج لارتدائه، بقدر ما أندد بهؤلاء المهرجين الذي يحاولون أن يصوروا لنا أي مظهر إسلامي بأنه مبعث التأخر وظلامية العقل والتفوق.

اخرج معي أيها القارئ من إشكالية النقاب وعقدتك نحو النقاب، وطالب معي بتكريم هذه السيدة المصرية التي تستحق التكريم والتميز والإشادة حينما جعلت مصر كلها تفخر بنسائها.

اليابان العظيمة لم تنظر للدين والجنس واللون، وإنما نظرت للعقل والموهبة والعبقرية، ويوم أن نكون كاليابان ونؤمن بالحرية

الشخصية للإنسان، فلا شك أننا سنكون قد درجنا أولى خطوات التقدم والرقي، ولكن دعاة الظلام شغلوا أنفسهم بمحاربة الفكر والدين والعقل، وأغرقوا البلاد والعباد معهم في ظلام وجهل وتأخر.. فإذا أردت أن تحدد مصدر الظلام الحقيقي، فليس هو الإسلام ولا النقاب ولا الإسلام، ولكنه العلمانيون الجهلة الذين يتآمرون على عقيدة الشعب وهوية البلاد، لقد كان تميز الباحثة المنتقبة لا شك ضربة في مقتل غصت لها قلوب هؤلاء المردة المرجفين.

دعوني أسائل هذا الفيلسوف المتنور: قل لي بالله عليك: ما تعليقك على الخبر؟

إنني متشوق أن أرى لك تعليقا عليه.

فلعل اليابان رغم تفوقا العلمي لم يظهر لها بعد ذلك الكشف العلمي الذي اخترعته أنت وسبقت إليه في دنيا العلم من أن النقاب حجَّاب للعقل، ويا ليتك تفعل مثلما فعلت المرأة المصرية، فتنال من العلم ربعها أو نصفها أو شيئا يسيرا من تميزها وعبقريتها التي أعلنتها طوكيو على العالم.. لكنك لا تفلح إلا في الجهالة والخيبة وكل ما يدعو للتأخر والتقهقر.

النصف الفارغ

النفس الإيجابية المشرقة، هي التي تنظر دومًا إلى نصف الكوب الممتلئ، في الوقت الذي لا تغفل فيه ذلك النصف الفارغ، لكن أغلب الناس لا يلتفتون إلى النصف الممتلئ، ويسارعون إلى ندب النصف الفارغ، حتى يخيل إليك أن الكوب كله فارغا!

حينما تقول لأحدهم: ما رأيك في فلان؟ فإنه لا يقف على أي ميزة له، ويسارع إلى التقاط كل السلبيات التي علمها فيه، وكأنها هي مناط التقييم وأساس ذلك الشخص، بينما لو تريث قليلا وأخذ يبحث عن إيجابياته لوجدها كثيرة ومبهجة.

تجد هذه أكثر ما تجده في فكر الشباب المتشدد، الذي ينظر لكثير من أعلام الإسلام ممن يخالفون طريقته ومنهجه، فيغض الطرف عن كل العظائم التي قدموها للإسلام، ولا يركز إلا على ما يراهم يخالفونه فيه، ويخيل إليك من حديثه، أن هذا العالِم شر كله، وبلاء كله، ولم يقدم للإسلام خيرا في حياته.

وقد يكون لهذا العالم قدم راسخة في الدفاع عن الإسلام ضد خصومه، وبلاء مذكور في دحر أعدائه، ولكن كل هذا لم يشفع له عند القاصرة عقولهم.

وهو نفس الإجراء الجائر الذي يمارسونه مع التصوف والصوفية، فينسون خدماتهم الجليلة للنفس المسلمة، وكيف وضعوا المناهج والمثل في تنقيتها وتطهيرها، بل كيف كان لهم جهد عظيم في نشر الإسلام، ولا يلتفتون إلا قطاع منهم ارتضى البدعة وأتى بالخرافة، فلا ينظرون إلى الصورة المشرقة من هذا التيار، ويستدعون الظلام كله من أجل طائفة أتت بالمساوئ.

أنبهر كثيرًا بهذا الزوج الواعي الذي يعترف بأن زوجته غير جميلة، لكنه من جهة أخرى، يرى قيمتها الحقيقية في أخلاقها ونضوجها وعقلها، ومواقفها التي أثبتت فيها أنها خير معين له في هذه الحياة، تساعده وتشد من أزره في تربية أبنائه، وتسيير أمور المعيشة.

إذا حاولت يومًا أن تحكم على شيء أمامك فيجب أن تفتش فيه أول ما تفتش على المحامد والمميزات والحسنات، أما إن كنت من أصحاب النظرة السوداوية، فلن تفلح في الحياة، ولا في التعامل مع الناس، ولن يرتاح بالك أبدا، ستظل على الدوام حائرًا بائسًا لأنه لا يوجد شيء كامل في هذه الحياة.

وما أجمل ما قيل: لا تنظر إلى نصف الكوب الفارغ بل انظر إلى النصف الممتلئ كي تقر عينك وتسعد به، فهناك أكواب فارغه تمامًا لا تحتوى على النصف الذى لديك.

ولسنا هنا نريد أن تجعل عينيك معصوبة عن النصف الفارغ، أبدا أبدا.. فالنصف الفارغ قد تكون له قيمة عظيمة في توجيه حياتنا، حينما تضعه نصب عينيك فيدفعك دفعًا أن تقترب من مرحلة إتمام

الكوب وامتلائه كله، وهي مواءمة لا يقدر عليها إلا نفوس سوية تؤمن بالتوازن والبناء والإصلاح، ولا تهدم المعبد على من فيه لأجل الكوب الفارغ.

أعرف من أصدقائي من يمتلكون صفاتًا منفرة مزعجة، تجعلني أضيق بصحبتهم والجلوس إليهم، لكنني سرعان ما أتراجع وأتمهل حينما أعلم منهم محبتهم لي وصدق إخلاصهم.

ولا أنفي أبدًا أن هناك من السلبيات من تهدم معها كل إيجابية، وتفسد في موازينها كل ميزة، فقد رأيت أديبا فصيحًا، وكاتبا لا يشق له غبار، يتمتع بأسلوب قوي مكين، وبلاغة فائقة رصينة، إلا أنه وللأسف يكتب في أمور تافهة، لا تقدم قيما ولا تزكي خلقا، ثم تدرج به الحال، أن صار يكتب قصصا في الجنس والإثارة، أملا منه أن يجتذب قدرًا كبيرًا من الجماهير التي تحب هذا اللون، وتساهم سريعا في شهرته وتزكيته، كما أنه يمكن له أن يتلون قلمه ببعض أثواب النفاق والمداهنة، فيتزلف إلى الكبار ببلاغته وبيانه، أملا في مكانة، أو طمعًا في منصب.

لا أدري فأنا هنا لا أغض النظر عن إيجابياته في كونه بليغا فقط، وإنما أعد هذه البلاغة شرا ووبالا عليه وعلى من حوله.

روى أن شقيقاً البلخي، ذهب في رحلة تجارية، وقبل سفره ودع صديقه إبراهيم بن أدهم حيث يتوقع أن يمكث في رحلته مدة طويلة، ولكن لم يمض إلا أيام قليلة حتى عاد شقيق ورآه إبراهيم في

المسجد، فقال له متعجباً: ما الذي عجّل بعودتك؟ قال شقيق: رأيت في سفري عجباً، فعدلت عن الرحلة، قال إبراهيم: خيراً ماذا رأيت؟ قال شقيق: أويت إلى مكان خرب لأستريح فيه، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى، وعجبت وقلت في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر في هذا المكان النائي، وهو لا يبصر ولا يتحرك؟ ولم ألبث إلا قليلاً حتى أقبل طائر آخر يحمل له العظام في اليوم مرات حتى يكتفي، فقلت: إن الذي رزق هذا الطائر في هذا المكان قادر على أن يرزقني، وعدت من ساعتي، فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق، ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح الذي يعيش على معونة غيره، ولم ترض أن تكون الطائر الآخر الذي يسعى على نفسه وعلى غيره من العميان والمقعدين؟ أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى؟ فقام شقيق إلى إبراهيم وقبّل يده، وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق، وعاد إلى تجارته.

الليلة الفقهية السوداء

كنا نقرأ قديما عن التعصب المذهبي، وكيف كان يقود أنصاره وأتباعه للعداوة والكره والمقت والبغضاء، كان شيئا عجيبا ما يحدث، فالفقه الذي هو علم الدين، أو علم الفهم في الدين، كان في بعض فتراته حينما تجرد من التربية والتقوى، صار أصحابه روادا للجهل، وصارت نفوسهم التي كان يفترض لها أن تتهذب وترتقي، على حالة مذهلة من الشقاق والعراك.

ناهيك عن الأحكام القاسية التي لم يتورعوا أن ينعتوا بها بعضهم بعضًا، فهذا فاسق وهذا مبتدع، وهذا ضال، وربما كافر بالملة، وخارج عن الإسلام.

لم يقتصر الأمر على التراشق اللفظي، وإنما كانت هناك مساحات واسعة، ومواقع مشهودة معلومة للعراك اليدوي، الذي لم يحترم دينا ولم يقدر سابقة، ولم يستح من علم، فكم من أئمة كبار طالهم الأذى بسبب اجتهادهم في المسائل الفقهية، واختلافهم مع مذاهب أخرى لها أنصار ومريدون، يحمونها ويدافعون عنها بالعنف والقوة، قبل العلم والحجة.

ومن العجب أن تتكرر مثل هذه الصور القديمة في العصر الحديث، ولم العجب؟ فالتقوى إذا غابت وضاقت الصدور، وعم

الجهل، وأكلت العصبية المأفونة عقول الناس، يمكن لذات المواقف أن تتكرر وتعيد أيامها الخوالي.

حكى سعادة السفير (شعبان شعيب) في بعض ذكرياته ما حدث في قريته وهو صغير فقال:

"كان الشيخ عبد الخالق رحمه الله إمام وخطيب المسجد الغربي لفترة من الزمن، ومنذ حوالي ٦٠ سنة، وفي أول ليلة من

رمضان، اقترح أن يلقي درسا بسيطا قبل العشاء عن الصوم، وكانت ليلة ليلاء غاب فيها القمر، فبعد أن بدأ في إلقاء الدرس، إذا بالحاج عبد الحليم رحمه الله يسأله سؤالا غريبا عجيبا، لا أصل له ولا فصل ولا معنى ولا منطق، وهو أن رجلا كان يتسحر شعرية طويلة مسلوقة، ولأنه في عجلة من أمره، كان يبتلع الشعرية بأعوادها السليمة دون مضغها، وفجأة أذن الفجر وعود شعرية نصفه داخل البلعوم ونصفه الثاني يتدلى من فمه..!! فماذا يفعل يا شيخ عبد الخالق يا عالم يا أزهري ياللي بتعطي دروس عن الصيام؟

تعجب الشيخ عبد الخالق ومعظم الحاضرين، وقال له: إن هذا من الصعب حدوثه، فقال له: هو ده اللي حصل، عندك إجابة ولا لأ؟، قال الشيخ عبد الخالق: مادام الأمر كذلك فإنه يمكن للرجل أن يقطع عود الشعرية، ويبتلع النصف الموجود داخل البلعوم ويلفظ النصف الخارج من فمه... قال الحاج عبد الحليم: إن الاجابة غلط، وبكده ممكن تضل الناس بغير علم... فقال الشيخ عبد الخالق: يا

سيدي أنا غلطان واذا كان عندك الاجابة قلنا عليها ومنك نستفيد... قال الحاج عبد الحليم: إن الحل هو أن يبقى الرجل على وضعه هذا طوال اليوم، وأن يظل فاتحا فمه ونصف عود الشعرية في داخل جوفه والثاني متدلي من فمه، ولا يبتلع ريقه حتى أذان المغرب.

علت كثير من أصوات معترضة على هذه الاجابة الشاذة الغريبة، فكيف لأي أنسان أن يتحمل ذلك، في حين علت

أصوات أخرى تؤيد فقه الحاج عبد الحليم، وترى أن هذا هو الحل الأضمن لصحة الصوم، تكهرب الجو بتبادل الشتائم والسباب، ثم بالتشابك بالأيدي بين فقهاء المذهبين الجليلين، وفجأة طار قبقاب خشب صوب فانوس المسجد فهشمه تهشيما، فساد الظلام وسادت الظلمة والجهالة، وبدأت المعركة الضروس.

وانتهت الليلة الفقهية السوداء بأن تفرق الجميع، وكل منهم يضمد جروحه ويداوي آلامه، وغادر الناس المسجد دون أن

يستمعوا لدرس الشيخ عبد الخالق، ولا صلوا العشاء، ولا صلوا التروايح، وضاعت الفرائض والسنن بسبب التجرؤ على الفتوى في دين الله بغير علم."

نعم ضاعت الفرائض والسنن بسبب الجهل والتعصب، وحرموا من الصلاة، جزاء لهم، فلا يمكن لمثل هذه النفوس أن تقف بعد هذه العداوة والغليان والنفس الجاهلة بين يدي الله تعالى، لقد

حاولت أن أبحث في الصورة عن أي شيء إيجابي ألفت إليه، لكن ضحالة العقول، وصغر النفوس، جعلني أتألم من أحوال الناس الذين يتعاركون على الصغائر، ويتشاكسون في التوافه، بينما أعداؤهم يصعدون إلى القمر، ويبنون الحضارة، ويركبون صهوة العلم، وحينما تسيل الدماء لا مشكلة إذن إذا سالت لأي غرض من أغراض الدنيا، ولكن حينما يكون الفقه في دين الله هو منشؤها ومؤجج أوارها، فهذا شيء محزن، نأسف عليه حينما نراه ليضيف إلى أوجاعنا أوجاع، وإلى آلامنا آلام.

وليس العيب في الفقه، ولكنه عيب النفوس التي لم تتفقه.

كثير من طلبة العلم الذين يفتقدون الأدب والاحترام، على استعداد اليوم أن يرتكبو جرائم ومنكرات، دفاعا عن حكم فقهي تلقوه من شيخهم، الذي صاروا يقدسون أقواله، على حساب العقل الذي فتح منافذ الاجتهاد، فضيقوا واسعا، وحاصروا منفتحا، وملأوا حياتنا بالغل والكره والحقد.

الكلب والبطل

يأتي الحديث عن الكلب بوكا الذي صعد الهرم الاكبر في الوقت الذي استشهد فيه بطل المقاومة الفلسطينية الشهيد يحيى السنوار.. وما كان ذلك إلا ليكشف لكل واحد منا عن همته وعزمه وحلمه وعقله.

الفجرة الذين يتحدثون عن الكلب يصورون لك انه قام بعمل بطولي خارق، بل وخاض مسارا وطنيا للترويج لسياحة بلاده، دعما للتعمية على بطولة الشهيد العظيم، وتشويشا لخاتمته النضالية التي أدمت قلوب الملايين المخلصين فرقا وحزنا على فقده، بل ادهشت الدنيا كلها لهذا الصمود الخارق، بل علمت العالم كله ما معنى القيادة الصادقة والفرق بينها وبين قيادة تحتجب خلف برجها العاجي.

تخيل أمة يكون فيها هذا المشهد البطولي الاسطوري الذي يعد أعظم وأسمى واجل مما يقدسه الغرب من حال جيفارا حينما قتل اعزلا مأسورا، ثم يأتي قطيع تافه من امتنا يلهون بأنباء الكلب، إن هذا لا يليق إلا بأمة خانعة وقلوب خائنة وعقول فارغة تافهة، تستحق أن ترتع في التخلف والتراجع والهزائم الكاسحة.

إن محاولة تصدير أنباء الكلب أمام أنباء البطولة هو عمل حقير يخدم أعداءنا ويعمل على تمييع القضية في عقول المشاهدين.

البرامج المصرية تتحدث برمتها عن الكلب وعمله الخارق، ورأيت النباح الأقرع، يتحدث في برنامجه عن ملحمة الكلب بحماسة ولهفة، وكأنه يتحدث عن نصر أكتوبر.

بل سمعت أن مذيعة مشهورة تنوي استضافة الكلب في برنامجها الشهير تكريما له على ما أسداه لبلادنا من فتح سياحي عظيم، بل أخشى أن يقوم ساقط ويطالب بترقية الكلب لمنصب سياحي مهم، أو وضع صوره على طوابع البريد، او تسمية ميدان التحرير باسمه، جزاء على ما قدم لمصر.. نعم يمكن أن يحدث أكثر من ذلك، فمن طفى على السطح أناس يحملون عقول الحشرات.

ولعل هذا المشهد بالتحديد هو ما يجسد حالنا، فنحن امة كلاب لا أمة ابطال، أمة يروعها كلب في الوقت الذي يقف العالم كله تعظيما وإكبارا لموت بطل، لم يترك سلاحه حتى الرمق الأخير، الأعداء أنفسهم، لولا الحرج لصنعوا للرجل تمثالا يرمز لكفاحه، ولو أن مثله في أمريكا وأوروبا، لأقاموا له التماثيل في الميادين، لكننا أمة كلاب لا تستحق هممنا إلا ان تتعلق بالكلاب، اما الابطال فلهم عالم آخر وأمم أخرى.

كنت أجل صديقا معي، فلما وجدت له منشورا يستعظم عمل الكلب، عذرته وقلت لعل النبأ أدهشه، ولعله كان من المحزونين على السنوار، وأغفله النسيان، فتتبعت صفحته لأجد اي نبأ يرثي البطل الشهيد، فلم أجد حرفا واحدا، فتركت هذا الصديق المكلوب بلا لوم

او تنبيه، لأن مثله لا يمكن ان يعي مما أقول شيئا.. فالقدر ساق لنا هذا المشهد في هذا التوقيت حتى يعرف كل منا نفسه ويقف على حقيقته.

لكنني أقول مؤكدا:

إن مجرد الحديث عن نبأ الكلب في ظل هذا الحزن العاصف على أعظم بطل إسلامي في العصر الحديث، لهو خيانة فاجرة للدين والوطن والأمة والعروبة.

أزهري علمنا التواضع

من يستطيع أن ينكر أن العقاد كان رجلا متكبرا؟

بعض الباحثين أو المحبين يحلوا لهم أن يسمو ذلك اعتزازا بالنفس في محاولة للتعمية عن داء الكبر الذي أصيب به العقاد.

لكن الحقيقة أن الرجل كان لديه إباء عظيم يصل لحد الغطرسة في ساحة العلم والفكر وليس في ساحة الحياة.

قلت قديما بأن داء الكبر حينما يصيب العالم أو الأديب أو المفكر، فإنه يكون في أبشع صوره، لأن هؤلاء الناس من المفترض أنهم أوفى الناس رقيا وتهذيبا وأبعدهم عن أمراض النفس وهنات الأخلاق.

فإذا كانت فيهم هذه الأمراض وعانوا منها، فإن صورتها تبدو أكثر رداءة وقتامة عن الإنسان العادي الذي يمكن أن يقبل منه شيء من هذه الأوصاف، لكنها تكون شاذة غريبة حينما يتزيَّا بها أهل العلم والفكر.

وفي الوقت ذاته يبهرك ويثير إعجابك حينما يشع خلق التواضع من نفس عالم أو صاحب فكر أو مؤلف مرموق، يزداد تعظيمه ومحبته في قلبك لتواضعه الفريد الذي يفرض على كثيرين أمثاله كبرا

وعلوا يحجبهم عن الناس، وينشئ بينهم وبين كافة البشر حجابا وكأنهم أعلى رتبة وعنصرا.

وفي الوقت الذي يتباهى كثير من الأنداد بما يوهم تفردهم على رتبهم، ترى أهل التواضع لا يلوون على شيء من هذا ولا يلتفتون إليه، فهم منكسرون طيبون لا يصارعون ولا ينافسون ولا يحقدون.. نماذج عالية وفريدة ونفوس راقية سامحة في عالم الأخلاق.

دهمتنا هذه الخاطرة ونحن نقرأ ما ذكره شيخ الأزهر السابق الراحل جاد الحق علي جاد الحق في كتابه (رحلتي إلى السنغال) عن ذكرياته وهو طالب في كلية الشريعة حيث كان يدرس له الفلسفة الأستاذ شبل يحي، وهو رجل حاز ثلاث شهادات حيث تخرج من الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي، أي أنه قامة علمية ومعرفية.

وكان الدكتور ابراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية فيما بعد شابا قد تجاوز العشرين بسنوات قليلة، وكان يقوم بتدريس الفلسفة في الفصول الأخرى حيث انتدبه الأزهر من كلية الآداب لتدريس الفلسفة مع الأستاذ شبل يحيى لتغطية أكبر عدد من الفصول الطلابية، وكانت إدارة الأزهر في ذلك الوقت ترفض أن يكون الفصل الواحد به أكثر من ٣٠ طالبا، فانقسم الطلاب إلى فصلين.

ومن الأشياء التي ذكرها الشيخ جاد الحق وكان ممتنا لها، عن أستاذه الشيخ شبل يحيى، أنه كان يحضر دروس الدكتور ابراهيم

مدكور، جنبا إلى جنب مع طلابه، لكي يتعرف إلى المنهج الذي يدرسه الدكتور إبراهيم مدكور لطلابه، والطريقة التي يتبعها في توصيل الفكرة إلى أذهان الطلاب ثم يسعى الشيخ شبل بعد ذلك إلى أن يكون أكثر عطاء مع الطلاب في الفصل الذي يدرس فيه.

فكر الشيخ شبل يحيى فوجد أن الدكتور مندور قد درس الفلسفة في باريس، وباعه أطول، فلابد أن يفيض على طلابه بأكثر مما لديه، وقد أعد الدكتور مدكور مذكرة مطبوعة تضم خلاصة محاضراته، وكان فيها غناء للشيخ عن الحضور مع الطلاب، ولكنه أراد أن يعلم كل ما لدى الدكتور مندور، فآثر أن يجلس مع الطلاب ليسمع كل ما يقول، وليدونه في كراسة معه!!

ونظر الدكتور مندور للموقف وقد تعجب من سلوك زميله، واعترف له أن الامتحان لا يخرج عن المذكرة، وعليه أن يقتصر عليها في درسه، فلا يكلف نفسه مشقة الجلوس مع الطلاب، لا سيما أن طلابه في الفصل المقابل سينظرون إليه نظرة لا ترفع من قدره أمامه، ولكن الشيخ شبل قرر في اطمئنان أنه طالب علم، ويسره أن يعلك طلابه ، أن الدكتور مندور وإن كان يصغره في السن فهو أكبر منه علما، ولا غضاضة في ذلك، وجعل من دأبه الحضور جالسا مع الطلاب، وقد أراد الدكتور أن يكرمه، فأحضر له كرسيا خاصا يجلس عليه في جواره، فأبى الشيخ وقال: إن النتيجة واحدة، وأن مجيء الكرسي لا يقدم ولا يؤخر! فأنا مستمع مستفيد.

لم يكن ما سجله الإمام الاكبر جاد الحق فريدا في هذا الشيخ شبل يحيى الذي قدم النموذج الأوفى في العالم المتواضع، الذي لا يعرف التكبر إلى قلبه السليم سبيلا.

فقد شاء الله أن تضاف إلى هذه الشهادة شهادة علم آخر من أعلام الأزهر الكبار وهو الدكتور محمد رجب البيومي، الذي سجل حديثه عن هذا التواضع الجسور لهذا العالم الجليل حيث قال:

" كان الأستاذ يتولى تدريس المنطق لنا بكلية اللغة العربية سنة ١٩٤٧هـ، وقد سار لي بين الزملاء بأني أنظم الشعر، وأنشر ما أكتب في الصحف والمجلات، وفي ظهيرة يوم من الأيام، رأيت الشيخ يتقدم إلي باسم الثغر، ويقول في صوت هادئ: معي يا بني قصيدة شعرية نظمتها استجابة لإلحاح جمعية الشبان المسلمين في القارة، كي ألقيها في احتفال الهجرة في الأسبوع القادم.

وأخشى أن يكون بها بعض الكسر العَروضي، أو القلق في القافية(فتفضل) هكذا..

تفضل بمراجعتها، واحذف منها مالا ترتضيه، فأنا لا أحب أن أحرج بين الجمهور!! سمعت هذا الكلام فدارت الأرض بي، ووضعت بين يدي اليمنى على رأسي، ويدي اليسرى على الجدار خلفي كيلا أقع!! طويلب علم صغير بالكلية يأتيه أستاذ كبير ليقول له: صحح ما تراه خطأ في قصيدتي!! لقد شاهد الرجل اندهاشي، فصحبني إلى مقهى الكلية، وطلب لي فنجان قهوة! وقال في مودة: يا بني الشعر

موهبة، وليس كسبا، وقد يملأ طباق الأرض ثم لا يقدر أن يقول بيتا، والقوم قد ألحوا على أن أنشد قصيدة في حفل الهجرة؛ لأني نظمت أشياء مهملة من قبل لا أرضى عنها! ففيم اندهاشك؟ خذ القصيدة واقرأها وأحضرها إليَّ من الغد! فلم أجد بدا من الاذعان، وقد قرأت القصيدة فوجدت مستواها مشرفا! وليس بها من الكسر العَروضي أو القافية القلقة ما توهم، فألحقتها بأبيات من الوزن والقافية أشيد فيها بمقدرة الشاعر، ونبوغه، وأكبر تواضعه المثالي، وحان اللقاء فأسمعته ما قلت، فجعل يقبل الورقة التي كتبت فيها أبياتي، وقال لي: شكرا لقد أعدت إلي ثقتي!

يقول الدكتور البيومي: إن معدن هذا الرجل نفيس نفيس، وإنه طبع على النموذج الفريد، إننا نشهد الآن زملاء المادة الواحدة يلمز بعضهم بعضا في المحاضرات أمام الطلاب، وبعضهم يحاول إيهام سامعيه بأنه وحده العالم المتخصص، وأن الأقدار قد ساعدت هؤلاء حتى صاروا زملاءه! نرى ذلك رأي العين، فهل نجد في هذا العصر من يحمل نفس الشيخ المتواضعة، فيجلس طالبا في محاضرة زميله ويدون ما قال ليعيده على الطلاب؟

أفرح لموت خصومي

الذي يعتبر أن الموت انتصارا له على غيره ممن فارقوا الحياة، هو إنسان جاهل مريض، لأن الموت الذي صرع خصمه، عما قريب سيزوره ويصرعه بما صرع به نده.

أناس كثيرون يفرحون بموت خصومهم وينتشون لذلك، وكأن الموت بختا لن يصيبوه ولن يصيبهم، وهم واهمون، فما جاء الموت إلا ليؤوبوا إلى الله ويعرفون أن ميدان الخصومة والصراع على الدنيا وشهواتها صراع فاسد لا قيمة له ولا داعي له، لأن الجميع إلى فناء وزوال، ولن يجنوا من الحياة إلا عملا صالحا يقابلون به وجه الديان يوم الدين.

وأمام هذا الميثاق نجد قوما ينكرون الفرحة في الموت مع كل أصناف البشر، والحق أن الموت أحيانا يكون منحة من الله تعالى للمعذبين والمضطهدين الذين تسلط عليهم بعض الطغاة يسوقونهم للعذاب سوقا.. يفرحون فرحة من يشعر بأنه ولد من جديد وأنه انتشل في حياته من الشقاء إلى السعادة، ومن الكبت إلى الحرية.

وفي معركة الفكر والمبادئ قد يفرح بعضهم بموت مفكر أو كاتب قضى حياته حربا للعقيدة والدين وتضليل الناس وإيذاء مشاعرهم الدينية والطعن في ملتهم وتشويه روحها وتعاليمها،

ووالدين والعقيدة في قلوب الناس عظيمة مهيبة، تساوي تما أو تفوق تعلقهم بشرفهم وحياتهم.

ومن ثم وضعوا هذا المارق الذي يهين دينهم موضع العدو الذي يتمنون زواله وفناءه، فإذا ما بلغهم موته، تهللوا من الفرح والسعادة، واعتبروا أن هذا الموت تدخلا إلهيا بالنصرة والتأييد.

أذكر أو حسبما قرأت أن نصارى مصر فرحوا فرحة عارمة بقتل الرئيس السادات، وكانت فرحتهم فيه لا لأنه مات ورحل بل لأن موته كانت اغتيالا بشعا وغدرا مدبرا، وذلك لأنه أهان رأسهم الديني وزعيمهم (شنودة) الذي كان يطالب بتفتيت تراب الوطن وإقامة دولة خاصة بالأقباط.

وبعض التيارات الدينية فرحت فرحا عظيما بموت عبد الناصر، واعتبرت موته منحة إلهية كشفت الغمة ومنحتهم الراحة والرحمة، ولولا أن الشعوب العربية كلها كانت تقدسه كزعيم لأقاموا الأفراح والليالي الملاح.

وهكذا الموت يفرح فيه أناس ويحزن له غيرهم، ولكن يبقى الدافع والسبب لهذا الفرح، هل هو من أجل حق وإيمان ومبدأ، أم أنه من أجل الأهواء والتنافس على الدنيا وشهواتها؟

هل أخبرك أنني أعد الذين لا يفرحون بموت ظالم طاغية أو مفسد في الأرض عدو لله بأنه إنسان في مشاعره خلل، أو أنه إنسان إمعة

لا يدري من أمر البلاد والعباد بشيء، ولا يهتم لحال الناس وظلاماتهم بهم، وما صاروا فيه من بؤس وشقاء أو نعيم ورخاء.

نعم فلو درى بما حوله وما أصاب الناس من ظالم رحل، لما تفلسف بهذه المثالية التي تنكرها القلوب الملتعاة والنفوس المضامة.

وروي أن رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ: (مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ فَقَالَ :(الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ، وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَر، وَالدَّوَابُّ).

إنها الراحة إذن فلماذا حينما نرتاح لا نعبر عن هذا الربيع الذي انتشت به قلوبنا من موت الظلمة الفجرة؟!

لقد سجد عليٌّ رضي الله عنه لله شكراً لمقتل "المخدَّج" الخارجي لما رآه في القتلى في محاربته له .

وفرح كذلك بقتل الخوارجَ، وسجد لله شكراً لما رأى أباهم مقتولاً وهو ذو الثُّدَيَّة، بخلاف ما جرى يوم " الجمل " و" صفين "؛ فإنه يفرح بذلك، بل ظهر منه التألم والندم، ولم يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك سنَّة بل ذكر أنه قاتل باجتهاده.

وقال ابن كثير – رحمه الله – فيمن توفي سنة ٥٦٨ هـ: "الحسن بن صافي بن بزدن التركي، كان من أكابر أمراء بغداد المتحكمين في

الدولة، ولكنه كان رافضيّاً خبيثاً متعصباً للروافض، وكانوا في خفارته وجاهه، حتى أراح الله المسلمين منه في هذه السنَة في ذي الحجة منها، ودفن بداره، ثم نقل إلى مقابر قريش، فلله الحمد والمنَّة، وحين مات فرح أهل السنة بموته فرحاً شديداً، وأظهروا الشكر لله ، فلا تجد أحداً منهم إلا يحمد الله."

وقيل لأحمد بن حنبل: الرجل يفرح بما ينزل بأصحاب ابن أبي دؤاد، عليه في ذلك إثم؟ قال: ومن لا يفرح بهذا؟

حتى إن ابن أبي دؤاد لما أصيب بالفالج وهو الشلل النصفي فرح أهل كثيرون بذلك، حتى سارع ابن شراعة البصري لينشد شعرا يعبر به عن ذلك الفرح فقال:

أَفَلَتْ نُجُومُ سُعودِك ابنَ دُوَادِ ... وَبَدتْ نُحُوسُكَ في جميع إيَادِ
فَرِحَتْ بمَصْرَعِكَ البَرِيَّةُ كُلُّها ... مَن كَان منها مُوقناً بمعَادِ
لم يَبْقَ منكَ سِوَى خَيَالٍ لامِعٍ ... فوق الفِرَاشِ مُمَهَّداً بوِسادِ
وَخَبتْ لَدَى الخلفاء نارٌ بَعْدَمَا ... قد كنت تَقْدحُهَا بكُلِّ زِنادِ

بل هل تعلم أن موت العدو فرحة ونعمة من الله تعالى أمرنا بذكرها وشكرها؟

نعم لا تتعجب فهذا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرا) الأحزاب/ ٩.

أما الذين ينكرون فرحة الناس في الظالمين ويقولون لهم إن الرسول الكريم قال: "لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا" فقد جهلوا لفظ الأموات والمقصود به وأطلقوه على عمومه، فهو خاص بمن كان شرا على الحياة والأحياء.

وأنا واحد من الناس وفي ميدان الفكر والكتابة والقلم، لا أخفي والله أنني أفرح بموت طغاة القلم، الذين نذروا أقلامهم وأفهامهم لحرب القيم والدين وتشويه مقاصد الشريعة، والترويج للإلحاد والبدعة واتهام الاسلام بالخرافة وآياته بالتناقض والخلل، أفرح لموتهم فرحا عظيما وأعده قربة لله، لأنه لم يكن فرحا إلا لله، وليس للهوى والذاتية فيه نصيب، أقول ذلك وأنا أتمنى موت كثيرين ممن ساروا على هذا الطريق وهذا الدرب، فأتمنى اليوم موت إسلام البحيري ويوسف زيدان وغيرهم ممن ناصبوا دين الله العداء، وروجوا للإلحاد وإيذاء المصريين والمسلمين في عقيدتهم ودينهم.

اعترافات غير متوقعة

قف هنا معي برهة عند هذا المعنى الغريب الجميل.

وما أكثر ما تثيرنا تلك المعاني التي يجتمع فيها الضدان، فتنطق باسم الجمال حينما تحوي معنى الغرابة!!

العراك والنزال والخصومة تنسي النفس أي مكرمة للخصم، ولا ترى من وجوده إلا النقائص والمعايب، ولا يمكن أبدًا أن تعترف للند بفضل أو مقام..

هذا يا أخي ما يحدث في دنيا الناس، لكن أصحاب النفوس العظيمة منهم، قد تحتد المعارك بينك وبينهم يوما ما، وحينما تتحول الأقلام إلى عصي لتهشيم العظام، وإلى سيوف تنهب لحم الغرماء لتملأ الساحات دماء وأشلاء.. في وسط هذه المعارك الطحون، والمجازر التي لا تبقي للود مكانا أو عرفانا.

هنا تتجلى هذه النفوس العظيمة، لتنحني لجلال الخصم، معترفة بفضله وعبقريته، مُقرة بسموه، إنها لحظة يعلن فيها صاحبها تجرده وبراءته من معالم الحقد وظلام الضمير.

وفي الوقت الذي يطبق فيه الحقد على كثير من القلوب، تأتي قلوب العظماء طاهرة مطهرة، جلية مجلية، من كل صهوات الكراهية والحقد.

إن القارئ لا يمكن أبدا أن يتخيل أن يقوم العقاد بكلمة شكر في ذلك الرجل الذي نال منه أبشع منال، وأسمعه مالم يقو أحد في العالمين على إسماعه له من غليظ القول وشديد اللفظ وعنيف التهم.

قال العقاد العملاق بعد وفاة الرافعي في أحد الحوارات: (إنني كتبت عن الرافعي مرات أن له أسلوباً جزلاً، وأن له صفحات من بلاغة الإنشاء تسلكه في الطبقة الأولى من كتاب العربية المنشئين، وقلتُ أنا لا أنكر عليه فلسفة البحث وصحة المنطق ودقة القياس. وهبنا توافقنا على المودة، ولم نتفرق في الخصومة).

إنك ربما لا تدرك حجم وقيمة وذهبية وسمو هذا الاعتراف، وذلك لأنك لم تقرأ على السفود، عليك أن تقرأ على السفود، حتى تعلم كم كان العقاد بهذا الاعتراف من عظماء الحياة.

ولعلي أضرب لك مثلا بنموذج آخر، أشد وأعتى في ممارسة الكبر البياني والعدوان القلمي والعراك الأدبي، إنه الدكاترة زكي مبارك، الذي عارك الجميع وعادى الجميع وسب الجميع وأعرب الجميع.

يقول زكي مبارك ويحكي دفاعه عن طه حسين ضد أعدائه وخصومه حينما كان الصفاء بينهما في أوجه:

"ثم نظرت فرأيت الشر يصل إلى الدكتور طه من رجلين لهما تأثير في الجمهور من الوجهة الدينية وهم الشيخ محمد عبد المطلب

والأستاذ مصطفى صادق الرافعي فصوبت قلمي إلى صدر الشيخ محمد عبد المطلب في المقطم والأهرام فانزعج. وانسحب من الميدان. ولم أرد مصاولة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في جريدة (كوكب الشرق)؛ لأنه كان يملك من القدرة على الهجاء ما لم أكن أملك، فجعلت ميداني جريدة المقطم، وفيها الأستاذ خليل بك ثابت وهو رجل يهذب ما يصل إليه من المقالات، وكنت أعرف ما هو عليه من الأخلاق، فاكتب مقالتي بصورة لا يجوز أن يحذف منها حرف وكان الأستاذ الرافعي يشتم ويلطم فيهذب خليل بك مقالته فلا يبقى منها غير الهجاء، وبهذا انتصرت على كاتب لم تعرف اللغة العربية في العصر الحديث كاتبا أقدر منه على مصاولة الرجال."

هل تلحظ هنا أني آتيك بنماذج من أشرس الرجال في معارك القلم، فالعقاد هو من هو، وهذا زكي مبارك الذي حول قلمه إلى مدفعية فتاكة لا تجد نفسها إلا في المعارك، فإذا فرغ من حرب ينتقل إلى أخرى، وإذا فرغ من موقعة، اشتبك في أختها، ولقد كان الأدباء يفرون منه ويتحاشونه، وكان هو قد امتلأت نفسه حتى كادت أن تنفجر من الثقة بالنفس والغرور المفرط، الذي يتعالى به على الجميع وحاشاه أن يعترف لخصم له بفضل، لكنه هنا وأمام الرافعي الظاهرة، يقر بأنه لم ينتصر عليه أو يجاريه في معركة إلا بالخداع واللجوء للحيلة.

ولكنه مع هذه الخصومة ينزله مكانته ويمنحه حق اللائق به فيقول عنه: " وبهذا انتصرت على كاتب لم تعرف اللغة العربية في العصر الحديث كاتبا أقدر منه على مصاولة الرجال"

جرب نفسك اليوم أيها الكاتب المعارك، هل يمكن لك أو تقدر أن تنزل من علياء الخصومة والكبر الذي تمنيك به، فتعترف لخصمك بالفضل والمكانة؟

إن فعلت ذلك ووجدته من نفسك، فاعلم أن قاطرة العظماء تنتظرك لتلحق بها.

ازَّيك يا نبوي

التواضع شيء جميل يدل على سماحة النفس، ورقي الخلق، وسمو الطبع.

أما التكبر فشيء رذيل يدل على سوء الخلق وفساد الذات وانحدار الغرض.

وبعيدا عن هذا كله نرى الشعور بالنقص أحيانا يكون أكبر دوافع التكبر في نفس الإنسان.

وأقبح منه هذا التكبر المفاجئ لمن كان بالأمس جليسك وأنيسك وونيسك.

فالمنصب الذي تقلده، والمال الذي ناله، جلب معه مسحة التكبر والعجب، الذي جعله يرى نفسه شيئا آخر غير ما كان عليه في الماضي، فلا يجوز لمن كانوا قريبين منه أن يعاملوه بما كانوا يعاملونه به سلفا.

فإذا ناداه أحدهم باسمه غضب وتذمر.!

وإذا داعبه او ضاحكة ضجر وسخط.

فما أروع هؤلاء الأصدقاء الذين لا يسمحون لتقلبات الزمن أن تفسد عليهم جمال أخلاقهم وعقدها العظيم الذي تجلى في خلق التواضع.

ويعد هذا التغيير المفاجئ في تعامل أحدهم وانتفاخه بنفسه.. انقلابا يحز في نفس الخلان، ويعرض أمام رؤاهم كم هذا الزمن غادرا لا يُبقي على ود ولا يخلص لوفاء.

رأيت بنفسي ومرت بي بعض هذه التجارب التي وقفت معها حائرا دهشا متسائلا: كيف للرتب والمال والحظوظ أن تهدم الود وتتنكر للعشرة بهذا الجفاء.

كان لي صديق في العمل نقضي الوقت معا، نأكل ونشرب ونتكلم ونمزح ونتسامر، وأناديه في غدوه ورواحه بـ عِلوة.. كنا على هذا الحال سنينا طويلة، وفجأة ترقى إلى درجة مدير، وظل تعاملي معه دوما على أسلوبي وطريقتي القديمة.. عِلوة راح عِلوة جاء، حتى فوجئت به يوما يطلب مني ألا أناديه بهذا الاسم رعاية لمنصبه الجديد.

قد يعذره البعض، ويجد له المبرر، ولا يجدون في تصرفه وطلبه أبدا أي خطأ، لكن مهما برر المبررون، فلن يستطيعوا أن يمحو من تصوري صغار النفس وجحود الوفاء الذي تزيا به عِلوة.

قرأت قديما عن رجل أعمال كبير أو صاحب منصب مرموق، نزل من القطار مع أسرته، ولقي صديقا قديما من أيام الدراسة يعمل

عاملا في ذات المحطة، ناداه باسمه مجردا وحياه واختضنه، والرجل الثري يسعد به ويقابل حفاوته بحفاوة أكثر.. ولما سأله عن عمله ومكانته، تبين له الفارق، فسارع الصديق القديم، ليضع التكليف، وشعر بحرج بالغ أن ناداه باسمه مجردا، لكن الرجل الكبير، رفض من صديقه هذا التكليف، وأخبره أنه يحب منه التبسط معه، ولا يمكن أن يكون بين الأصدقاء ما بين غيرهم من الناس.

هذا خلق عالي، وكمال في النفس، وتواضع عظيم، حرم منه كثير من الناس في واقعنا العملي.

ذات يوم وكنت في جمع من الاصدقاء، أقبل علينا رجل يعرف أحد الجالسين للسلام عليه وتحيته، فلما نظرت إليه، وجدته صديقا لي في مرحلة الاعدادية والثانوية، وبيننا عشرة طويلة، لا داعي لذكر تفاصيلها، لأن العلاقة بين أصدقاء الدراسة لا تستدعي شرح طبيعتها.

وما أن لمحته، حتى هللت في وجهه وسلمت عليه، وقلت من فرط سعادتي به من وحي ذكرياتي القديمة: (ازيك يا واد يا أحمد)، رد عليَّ بدهشة فلم يرني منذ زمن طويل، ولكنه سرعان ما ولى وانصرف، ولامني الجالسون على قولي، لأن صاحبا قد علمت منهم أنه صار مستشارا قضائيا.. قلت لهم: رويدكم يا قوم فأنا لم أكن أعلم ما وصل إليه صاحبي، ثم هو صديقي وما قلته له من باب الدعابة التي عهدتها معه منذ الصغر.

لم يقبلوا العذر، ومما أسفت له بعد ذلك حينما علمت أنه اشتكى الموقف لمن عرفه من جلسائنا، واستاء من مناداتي به بهذه الصيغة.

أعيد كذلك قولي إن له الحق، ويمكن أن يجد من القراء من يراه على صواب، ولكني أكرر أن صدمتي بمن جرح المودة وتنكر للعشرة لا حدود لها.

إنه العشم والتودد وبغض التكلف، لكن أناسا أخر، يرون هذا التكلف أسلوب حياة لا يمكن أن يعيشوا في غيبته.

ألفوا الكبر، وتطبعوا بالعلو، وتشبثوا بالمقام والترفع.

انظر لهذه المرأة العظيمة التي كان لها من اسمها نصيبا، إنها سلمى، وحقا كانت سلمى، وهو اسم من أسماء الجبال، وقد اضطلعت بما يتحمله الجبال، ففي ظروف شاقة وعصيبة عكفت على تربية ولدها اليتيم، إلى أن صار من أعلام العلم، وكبار المحققين، يذكر لنا العالم الجليل فضيلة الدكتور (النبوي شعلان) أن أمه في صغرة كانت تحثه على المدارسة والتفوق، وكان مما تقوله له دوما: لو نلت شهادة كبير لاحترمك الناس وأجلوك، ولو نلت شهادة صغيرة لقل احترام الناس لك.

يقول شيخنا: كانت هذه المقولة تمثل أمامي دائما وتملك على طيف خيالي في كثير من المواقف التي مرت في حياتي، فيوما ما وقد كنت

عضوا بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وبعد أن ركنت سيارتي، وهممت بالدخول إلى المجلس لحضور إحدى لقاءاته، سمعت صوت أحدهم يناديني باسمي ويقول: اذيك يا نبوي.. فالتفت إليه فإذا هو عبد الرحمن صديقي من أيام الدراسة، أقبلت عليه وعانقته وعانقني ووضع يده على كتفي، وأخذ يسألني ما الذي جاء بك هنا؟ هل لديم طلبا أو مصلحة فأقضيها لك، فأنا رئيس قسم في المجلس.

وهنا وقبل أن أجيبه بشيء، خرج صوت أحدهم من قاعات المجلس ينادي بأعلى صوته: هيا يا دكتور نبوي إلى الاجتماع حتى لا تتأخر.

وما أن قال الرجل قَولته، حتى وجدت عبد الرحمن قد سحب يده عني ويقول لي متحرجا: أنا آسف يا دكتور نبوي.. فقلت له: اسمع يا عبد الرحمن لا تقل هذا أنا النبوي وأنت عبد الرحمن صديقي.. لكنه أبى ذلك الحال، وأخذ يكرر أسفه وبشدة.

يقول الدكتور النبوي.. دخلت الاجتماع، وأنا في واد والدنيا في واد آخر، وكل ما يسيطر عليَّ مقولة أمي ونصيحتها القديمة: نِل شهادة كبيرة حتى يحترمك الناس.

وتذكرت صديقي عبد الرحمن الذي كنا متذمرين من تعيينه فور تخرجنا بالواسطة.. لقد سبقنا إلى التعيين، لكن الشهادة الكبيرة، تخطت بي الحدود. التواضع خلق وإيمان.

أخلاقنا أدهشت الغرب

مهما كانت أخلاق الغرب وأذواقه الاجتماعية سامية رفيعة، إلا أن أخلاق الإسلام تتمتع بدرجة عالية من الرقي والإبهار، تدهش به كل من شاهدها وعاينها وأحس بجمالها ولمس روعتها.

أخبرني معلمي أنه كان يعيش في ولاية ألباما بأمريكا، وبينما كان يمر في الشارع مع ولده، وجد زجاجة مكسورة على الأرض ويمكن لها أن تؤذي المارة، وتتسبب في جرح أقدامهم وإفساد سياراتهم، فما كان منه إلا أن قال لولده: هلم بنا أن نمحو هذا الأذى من الطريق، فقال فتاهُ: ومالنا؟ وما شأننا؟ فلنتركها ونمض في طريقنا، فما كان منه إلا أن أصر حتى يعمله درسا دينيا قبل أن يكون درسًا تربويًا مستمدا إقدامه من قوله صلى الله عليه وسلم: إماطة الأذى عن الطريق صدقة.!

ولعل روعة الموقف لا تتجسد في هذا الصنيع الإنساني الرفيع، ولا في هذا الدرس التربوي المبهر الذي جسده شيخنا المبجل، ولكن الروعة الحقيقية تجسدت حينما مر عليهم رجل أمريكي في سيارته وشهد الموقف، فما كان منه إلا أن أوقف سيارته، وأخذ يصفق لهما ممتنا سعيدًا مثمنًا صنيعهم.

وهكذا صفق الغرب لأخلاق الإسلام.

في حوار لي مع أحد رؤساء المراكز الإسلامية في إسبانيا حكى لي: أن الانطباع الغربي والدعوة للإسلام في الغرب، لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى محاضرات ودروس، بقدر ما تحتاج إلى سلوك وخلق جيد يراه المجتمع، فيسلم متأثراً به، وأذكر موقفاً حدث لي، حيث ركبت الحافلة، ووجدت مكانًا مناسباً فجلست فيه، وفي المحطة التالية، صعدت امرأة ومعها ولد صغير يبدو عليه آثار التعب والمرض، حتى أنه من إجهاده جلس على الأرض لم يجد مكاناً يجلس فيه، فقمت وأجلسته مكاني، ووقفت أنتظر حتى ترك أحد الركاب مكانه، ونزل فجلست في مقعده، فإذا برجل يجلس بجواري يراقب المشهد من بدايته، فسألني: أنت قمت من مكانك ولم تكن تريد النزول؟ فقلت: نعم فسألني مرة أخرى: إذاً أنت قمت لترك مكانك متعمداً للصغير؟! فقلت: نعم.. فسألني أربع مرات وهو يتعجب! لأن لدى معظمهم خلفية سيئة عن المسلمين، فوجدت هذه فرصة لتصحيح نظرة هذا الشخص عن الإسلام والمسلمين فقلت له: لا تستعجب فنبينا يقول: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا" فنحن نركز هناك على الأخلاق ثم الأخلاق.

وأمام هذا التعجب من أخلاق المسلم في الموقف الأخير، وأخلاق المسلم في الموقف السابق يمكن لك أن تعرف وتتيقن عظمة دينك وسمو ذوقه واعتلاء أخلاقه التي أدهشت عقول الغربيين وقدمت لهم نموذجا دقيقا قويا في الرقي الاجتماعي غير مسبوق أو معروف.

أبو هريرة يعود من جديد

اعتلت القطة كتف الإمام في الصلاة، فحنا عليها وهش لها وبَش.

ومن ورائه كان حديث هذا العالم الذي يفتقد معاني الرحمة، ويتيه في شقاء الجفوة، وصدق جهولا ما يشاع عن الإسلام من أنه دين القسوة وملة الوحشية وعقيدة العنف.. فإذا به يصفق مدهوشًا وكأنها حادثة غريبة وحالة نادرة، وإذا الناس في كل صقع وبقع يتناولون هذه العجيبة في دنيا الشقاء، ولسان حالهم ينطق ويقول:

واعجباه رجل مسلم يرفق بقطة! يا لها من رحمة لا نظير لها، وإنسانية فاقت كل معاني الرفق واللين.

ولكن تراثنا الزاهي المجيد حاضر هنا وشهيد على نقول، فما فعله هذا الرجل ما هو فيه، إلا مقلد متبع لأئمة وعلماء وقادة عظماء وأهل زهد وورع علموا العالم معنى الرحمة والرفق بالحيوان قبل الإسلام.. وكانوا تعبيرا صادقا لهذه الرسالة التي وصف الله نبيها بقوله: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وإنك حينما تطالع سيرة الصحابي الجليل أبي هريرة، لا يسعك إلا أن تقول ما أجمل الرجل حينما تشبه بِسيدِهِ، وأعاد إلى الأذهان صورته، فلماذا سمي أبو هريرة بهذا الاسم،

وكني بهذه الكنية، وهو الذي كان اسمه عبد الرحمن بن صخر، ومن يا تُرى سماه بها وأطلقها عليه ولماذا؟

يقول أبو هريرة: "كان اسمي في الجاهلية عبدَ شمس بن صخر، فسمّاني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَالرحمن، وكُنيتُ أبا هُريرة لأني وجدتُ هرة فحملتُها في كمّي، فقيل لي: أبو هُريرة"

وعن عبيد الله بن أبي رافع قال: قلتُ لأبي هُريرة: لِمَ كنيتَ بأبي هُريرة؟

قال: كنتُ أرعى غنمَ أهلي، وكانتْ لي هِرةٌ صغيرةٌ، فكنتُ أضعُها بالليل في شجرة، وإذا كان النهار ذهبتُ بها معي فلعبتُ بها، فكنوني أبا هُريرة.

واعلم يا أخي أن القط وعنصر القطط، من أرحم الحيوانات قلبا وأرقهم أفئدة، ولها في خبر الإسلام خير ذكر وعظيم شأن، بل ارتبط اسمها دوما بالرحمة والجنة في الأحاديث والآثار.

قال صلى الله عليه وسلم: "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حتَّى ماتَتْ، فدخَلتْ فيها النارَ، لا هيَ أَطْعَمَتْهَا، ولا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، ولا هيَ تَرَكَتْهَا تأكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأرض

وعن جابر – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عُرِضتْ عليّ الجنة، حتى لو تناولتُ منها قطفًا أخذته، (أو قال: تناولتُ منها قطفًا، فقصرتْ يدي عنه)، وعُرِضتْ عليّ النارُ فرأيتُ فيها

امرأة مِنْ بني إسرائيل تُعذَّب في هرةٍ لها، ربطتْها فلم تطعمْها، ولم تدعْها تأكل مِنْ خَشَاشِ الأرضِ، ورأيتُ عمروَ بن مالك يجرُّه قصبه في النار"

بل هل يعلم هذا العالم المندهش أننا أول أمة في العالم تؤلف كتبًا عن البر والعطف بالقطط فللعلامة شمس الدين ابن طولون الحنفي الدمشقي (ت: ٩٥٣هـ): "إظهار السر في فضل الهر"، ذكره لنفسه في كتاب سيرته، وللشيخ عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي (توفي بعد سنة٩٧٦): "رفع المَضرَّة عن الهر والهرة"

كما هناك ما كتبه العلامة الملا علي بن سلطان محمد القاري الهروي المكي الحنفي (ت: ١٠١٤هـ): تحت عنوان "البَرَّة في الهرة"، وهي مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد.

وروى ابنُ عساكر في "تاريخه" عن بعضِ أصحاب الشبلي أنه رآه في النوم بعد موته فقال له: ما فعل اللهُ بك؟

فقال: أوقفني بين يديه وقال: يا أبا بكر أتدري بماذا غفرتُ لك؟

فقلتُ: بصالح عملي. فقالَ: لا.

فقلتُ: بإخلاصي في عبوديتي. قالَ: لا.

فقلتُ: بحجّي وصومي وصلاتي. قالَ: لم أغفرْ لك بذلك

فقلتُ: بهجرتي إلى الصالحين، وإدامة أسفاري في طلب العلوم. فقال: لا

فقلتُ: يا ربِّ هذه المُنجيات التي كنتُ أعقدُ عليها خنصري، وظنّي أنك بها تعفو عني وترحمني. فقال: كل هذه لم أغفرْ لك بها.

فقلتُ: إلهي فبماذا؟

قال: أتذكرُ حين كنتَ تمشي في دروب بغداد، فوجدتَ هرةً صغيرةً قد أضعفَها البردُ، وهي تنزوي مِنْ جدارٍ إلى جدارٍ مِنْ شدة البردِ والثلجِ، فأخذتَها رحمةً لها فأدخلتَها في فروٍ كانَ عليك وقايةً لها مِنْ ألمِ البرد؟

فقلت: نعم.

قال: برحمتِك لتلك الهرةَ رحمتُك"

وعند نهاية هذا المطاف إليك خبر ابن سميع الحلبي (مِنْ أهل القرن السادس الهجري):

قال الإمامُ ابنُ العديم (ت: ٦٦٠هـ) في ترجمة أبي سعد بن أبي الحسين بن عبد الله الشرابيشي الحلبي في بغية الطلب في تاريخ حلب:

"سمعتُ الشيخ الصالح أبا عبد الله محمد بن أبي سعد قال: حدثني أبي قال: كان بحلب رجل يقال له ابن سميع يسكن بباب اليهود الذي يقال له الآن باب النصر، وكان ضامن سوق الدواب مكاسا.

قال الشيخ محمد: وكان بينه وبين والدي معرفة، فاتفق أن حضرته الوفاة فأوصى إلى والدي أن يخرج عنه حجة وصدقة، وغير ذلك، وكان له أخوات لم يكن له وارث غيرهن، وكان لبيت المال معه تعلق، وأثبت والدي وصيته عند مُحيي الدين بن الشهرزوري، وحضر بعد موته بمدة نوابُ الحشر ووالدي داره لاعتبار تركته.

قال والدي: فابتدر أحد الجماعة وقال: رأيته في النوم وهو على حال حسنة، وقال لي: غفر الله له بهذه القطيطة، فنظرت فإذا هرة مبتلة في الشمس، فسمع أخواته من أعلى الدار قول القائل عن المنام فقالوا: والله نعرفُ له حكاية مع هذه القطة التي تذكر، وذلك أنه كان له هرةٌ يألفهَا، وتدورُ به ويحضنها، ويطعمها على مائدته، ويأنس بها، فاتفق أنه خرجَ يومًا إلى سوق الدوابِّ فمضتْ الهرة إلى المُستراح فسقطتْ فيه، فلما جاء من سوق الدوابِّ وعليه الترابُ جلس ومدَّ رجليه إلى أسفل القاعة، وطلب ماء ليغسلَ رجليه وسأل عن طعامٍ هيئ له، فصعدتْ أختُه لتصبَّ له الطعام، وبقيتْ أختُه الأخرى عنده تغسلُ رجليه، فقالتْ له: ما تعلمُ يا أخي ما جرى على القطيطة؟

فقال لها: وما ذلك؟ قالت: سقطتْ في المُستراح.

فقال: لا آكلُ حتى أخرجها، ومنعهم من إنزال الطعام، وقام وشمّر ثيابه، وأخذ المجرفة، وجاء إلى المُستراح وفكَّ البلاط، وحفرَ حتى وصل إلى رأس الجب الذي يستخرج منه الغائط، فأراد رفعَ الطابق فامتنع عليه، فخرج إلى خارج الدار واستعان بمَنْ أعانه على

قلعه، ثم حفرَ في الحائط، وعارضَ خشبة، وجعلَ فيها حبلًا وأمسكه بيده وانخرطَ فيه حتى نزل، فوجد الهرةَ جالسة على التقن، فأخذها وصعِد، وغسلها، وتركها في الشمس حتى يبست، فهذا حالُه مع الهرة"

ابنتك في يد أمينة

شيء محزن أن تجد أستاذًا ومعلما يضطهد تلميذًا عنده، فيصر على إفشاله ويتعمد تحطيمه ويسعى إلى رسوبه.! يرميه بالأسئلة الصعبة حتى لا يجيب، وإن عجز عن الإجابة أهانه ووبخه، حتى يكسر نفسه ويحطم ثقته بذاته.. أنا لا أعلم ما طبيعة هذا المعلم الذي يضطهد تلميذا، وكأن بينه وبينه ثأر لا ينطفئ؟!

المعلم الذي يفترض له أن يكون قدوة ووالد وبينه وبين تلميذه رحما هي رحم العلم، التي تعد أقوى من رحم الأنساب، لكن هذا المعلم الناقص كفر بها وقطعها وولاها ظهره.

وفي الوقت الذي فرض عليه موقعه أن يكون قدوة كبيرًا، إذا به يبدو صغيرًا ضئيلا سفيها ناقصًا.

أنا واحد من الناس قابلت في مراحل تعليمي هذه النوعية الساقطة، وبينما أنا طالب صغير، بين الطفولة والصبا، كان هناك من يعاملني بقسوة ويعاقبني بوحشية، ويتعمد إهانتي وتحطيمي، وكنت أندهش وأسائل نفسي: لماذا هذه القسوة المفرطة ما سببها يا ترى ولماذا لا يلقى غيري من التلاميذ مثلها، ولما كبرت علمت أن هناك عداوة وخصومة بين هذا المعلم وبين والدي، ورغم أنه كان معلمًا في المرحلة الابتدائية، وكان والدي من رجال التعليم الكبار، الذي يمكن له أن

ينكل به، إلا أنه لم يستطع أن يخفي شهوته المسعورة في الانتقام من أبي حين واتته الفرصة في شخصي الضعيف، ليكيل علي العقاب وينزل على جسدي العذاب.

أذكر مرة أن حضر والدي إلى المدرسة بعد ان صرت اشتكي وأبكي وأمتنع عن الذهاب إليها، لأن المعلم الفلاني يضربني بشده.

حضر في ذلك اليوم الذي أتذكره جيدا وقامت الدنيا رأسا على عقب، ودلف إلى فصلي، وكنا وقتها في حصة ذلك المعلم، فأخذ والدي يصيح في وجهه، ويرمي عليه صواعق غضبه، محذرا إياه بأن هذا تصرف لا يليق ولا يصح، وانه يقودني للخوف من المدرسة والعقدة من التعليم.. كان صاحبنا يومها يقف كفأر مذعور أمام هر بل أمام أسد، يحاول ان يقابل هذا الغضب العاصف بالتحليل الكاذب الملتوي.

كنت وقتها أرى أبي قويا، لكني لم أكن اعلم لصغر سني، ما يملكه من القوة التي تؤهله أن يعاقب هذا المعتدي بأقصى ما يمكنه من عقاب.. فقد كان مديرا بالإدارة التعليمية وله معارف ووساطات في كل مكان، لكنه رحمه الله كان كبيرا عاقلا محترما، ولم يكن ابدا ناقصًا صغيرًا على هذا النحو الذي ظهر به هذا المعلم، الذي فقد بفعله أبسط مقدرات المعلم، واكتفى والدي يومها بنقلي من هذه المدرسة، وانتشلني من بين هذا الذئب الوضيع.. ولا شك أن هذه المعاملة تسببت في تعقيدي من التعليم والدراسة إلى وقت طويل لم أتجاوزه إلا في مراحل متأخرة.

ربما لا يعلم أمثال هذا المعلم أن الزمن دوار، وأن الله بقدرته وعدله، يمكن أن يمكن هذا الطالب الضعيف المسكين، من هذا المعلم الناقص، في يوم من الأيام، وفي تلك آيات مبهرات.

حدثني فضيلة العلامة الدكتور النبوي شعلان أمد الله في عمره وعمله، أنه وهو في الصف الثاني من المرحلة الابتدائية المسماة اليوم بالإعدادية، ابتلي بمدرس من هؤلاء، أخذ يضطهده، ويتصيد له الاخطاء، ويتعمد إهانته، ويضيق عليه، كان شيخنا يتحير وقتها من هذا العداء الذي يجعل مثل هذا الأستاذ، يفعل فعله هذا مع طالب من طلابه، لماذا هذا البغض وما دواعيه، وحتى لو كان يبغضه، فأين عدل الله الذي أمر به.؟ لكن شيخنا أدرك السبب حيث يقول: سبب كره هذا الشيخ لي أنه كان يريد أن أقول له إنني فقير ليعطيني خمسة عشر قرشا في الشهر كما يفعل مع زميل من قريتي وكان منظري لا يدل على فقر، فقد كنت البس ككولة من قماش صوف جيد وألبس حذاء من صانع مشهور في منوف فقد كانت أمي رحمها الله تهتم بي اهتماما كاملا حتى تبعد عني ألم فقد الوالد (ألم اليتم) فقد كان. هذا الشخص يريد أن يكسر نفسي فلم أعطه هذه الفرصة أبدا لأنه كان يعاني عقدة نقص إذ كان حسب ما علمت فقيرا محتاجا وكان من أساتذته من يعطيه ويعطف عليه، ويريد أن يمارس هذا الدور ويداوي هذه العقدة.. مرت تلك السنة التي تجرع فيها شيخنا المرار على يد هذا المعلم الذي كان يدرس لهم مادة الفقه في معهد منوف الديني، لقد كانت سنة كئيبة أذن الله بعدها بالفرج.

ولكن هذا المعلم مازال يتذكر هذا الطالب ولا ينساه أبدًا، ومهما رآه تجدد في نفسه عهد البغض وميثاق الكراهية.. وكذلك الطالب النبوي لا ينسى هذا الشيخ أبدا وظل مطبوعا في وجدانه لما لقيه من عنته.

ويتخرج الطالب النبوي من المرحلة الثانوية، ويترك معها تلك الذكرى المؤلمة، بأيامها العصيبة، ويلتحق بكلية اللغة العربية، ويسير في مساره العلمي حتى نال العالمية الدكتوراه، وصار أستاذا للنقد الأدبي في كلية اللغة العربية فرع البنات بجامعة الأزهر.. وهنا يحدث العجب العجاب، وينزل الدهر بآياته والقدر بتصاريفه، جاءت اللحظة التي تجلت فيها قدرة الله، وجاء معها الايمان الكبير بأن الزمن كما قلنا دوار.

الأستاذ الدكتور النبوي شعلان بين طلابه في المحاضرة يدرس مادة النقد القديم، وإذا بفتاة من طالباته تتفاعل معه بهمة ونشاط، يبدو عليها ذكاء وقاد وثقافة واعدة، وكان كلما سأل سؤالا أجابت، أو طلب شرحًا أبانت.. لفتت انتباه أستاذها فنظر إليها وسألها عن اسمها.

وهنا كان المفاجأة حينما قالت له: اسمي (س-ن-ش) دهش الدكتور النبوي من الاسم وسألها: انت ابنة الشيخ فلان الذي كان في معهد منوف الديني؟ قالت: نعم. فنظر إليها وإلى الطلاب قائلا لهم: هذه ابنة شيخي ووالدها كان أستاذي، ولكن ما المفاجأة في هذا الحوار، وما الذي يخبئه الكلام مما يدفعنا للدهشة؟ ومثل هذا يحدث كثيرا؟ ولكنك ستفاجأ حينما تعلم أن (ن-ش) والد تلك الفتاة هو ذلك المعلم

الذي اضطهد الطالب النبوي شعلان في المرحلة الثانوية.! يا ألله ما أغرب الدنيا وما أعجب الزمان.!

لقد جاءت الفرصة تحت أقدام الدكتور النبوي ليرد العقاب بعقاب، ويماثل الاضطهاد باضطهاد أشد، لقد جاءته الفرصة ليرد الصفعة إلى هذا المعلم الذي مكنه الله منه بعد هذه السنين الطوال.! ولكن ما كان للدكتور النبوي أن يفعل ذلك، وهو العالم الذي امتلأ قلبه سماحة وعفوا، ما كان له أن يفعل ذلك وهو الحامل لكتاب الله القائل: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).. ما كان له أن يفعل ذلك وهو المعلم الذي تربى تربية سوية، وآمن بالعدل بعد أن رأى حجود الظلم، وعرف معنى كلمة المعلم ورسالته والمسؤولية المناط بها والملقاة على كاهلة، بل أدرك معنى القدوة الذي يجب أن يحققه ويظهره في نفسه وأمام طلابه.

ماذا فعل الدكتور النبوي مع ابنة شيخه وأستاذه الظالم، هل قابلها بالظلم والاضطهاد كي يرد الصفعة إلى أبيها؟ لا.. لم يفعل ذلك وإنما طلب منها أن تمر عليه في مكتبه.

ولما جاءته أخرج بطاقته الخاصة – الكارت الشخصي- وكتب عليه: أستاذي الفاضل أرجو أن تطمئن إلى أن ابنتك في يد أمينة تخاف من الله وبين قوسين (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

يقول الدكتور النبوي: في المحاضرة التالية، بحثت عنها فلم أجدها ولما سألت عنها وجدتها في أخر المدرج صامتة وجلة خائفة، بعد

أن كانت في المحاضرة السابقة بالصفوف الأولى متحمسة متقدة الهمة والنشاط، تشارك وتجاوب، فناديت عليها وأدركت ساعتها أنها ذهبت إلى والدها وأعطته –الكارت– فأخافها مني وأكد لها كما صور له خياله المريض، أنني سأعاملها بنفس معاملته لي.

ولكني وقفت وناديت عليها وقلت لها: لماذا تجلسي في آخر الصفوف؟ أفسحوا لها وأمرتها أن تجلس في الأمام، وطمأنتها وأخرجت بطاقة أخرى وكتبت فيها رسالة إلى والدها: "أرجو أن تطمئن إلى أن ابنتك مع إنسان يخاف الله عز وجل" وتمر السنة وفي نهاية العام تنجح الطالبة ابنة الشيخ الظالم، وتحصل على تقدير جيد جدًا في مادة النقد القديم التي كان يدرسها الدكتور النبوي الذي ذاق الأمرين من أبيها الطاغية.

يقول الدكتور النبوي: أذكر صورتها إلى الان وهي قادمة تجري في الطرقة وكأنها تريد أن تحتضنني، وتقول بصوت يختنق فرحا: (أنا نجحت يا دكتور نبوي، وجبت جيد جدا يا دكتور نبوي) فرددت عليها وقلت لها: (مهو أنا يا بنتي إللِّي واضع الامتحان، وأنا اللي مصحح الورق وأنا اللي ماسك الكنترول) سلِّمي على بابا وقولي له: مبروك نجاحك.

فهرس المحتويات

إهـــداء ٧
مقدمة ٩
حاتم إبراهيم سلامة ١٠
يسرقون باسم الله ١١
من أخلاق الأعلام ١٥
وصية أبي ٢١
الرئيس يبكي.! ٢٣
ابصُقوا في وجوه الفَجرة ٢٧
الانتقام من الجماجم ٣١
إنسانية البهيّ ٣٥
ثمار الشهامة ٣٩
ليست نصاحة ٤١
نعوذ بالله من القاعدة ٩٩ ..... ٤٥
الانتقام المسعور ٤٩
الميراث الحقيقي ! ٥٣
جددوا العهد بالشرف ٥٧
المظلوم الذي أنصفه عدوه ٦١
يا لها من أم ٦٣
دعارة باسم الوطن ٦٧

ميوعة ٧١
عقدة الأرياف ٧٥
فلتحيا الكاميرات ٧٩
كيف هذا؟ ٨٣
ظلام الأحقاد ٨٥
وزير من ألف ليلة وليلة ٨٩
الرجل الذي آمن بالآخرين ٩١
سؤال يحيرني ٩٥
ليت الطاعون يستمر! ١٠١
النفوس الآسنة ١٠٥
اللحم المتفحم ١٠٩
ليت قومي يعلمون ١١٣
عقدة نقص ١١٧
دعوة أم ١٢١
حسرة تملكتني ١٢٣
ما أنبله من زوج ١٢٧
هوَس الفضيلة ١٣١
الرافعي والترام ١٣٣
ما رأينا مثله ١٣٧
مصيرنا مع الأخلاق ١٤١
قهر المشاعر ١٤٥
الله أكبر ١٤٦
يا لها من أخلاق ١٥١

تعلم أن تستمع ١٥٥
تطييب الخاطر ١٥٩
باب المسؤول ١٦٥
اليابان العظيمة ١٦٩
النصف الفارغ ١٧٣
الليلة الفقهية السوداء ١٧٧
الكلب والبطل ١٨١
أزهري علمنا التواضع ١٨٥
أفرح لموت خصومي ١٩١
اعترافات غير متوقعة ١٩٧
ازَّيك يا نبوي ٢٠١
أخلاقنا أدهشت الغرب ٢٠٧
أبو هريرة يعود من جديد ٢٠٩
ابنتك في يد أمينة ٢١٥